علّمتني سُورة الدُّخَانْ

جمع وإعداد
م. عامر كبّارة

علّمتني سُورة الدُّخان

الطبعة الأولى
الترقيم الدولي:

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
جمادى الثاني ١٤٤٢هـ. - كانون الثاني - يناير ٢٠٢١م.

يوزع مجاناً وصدقة جارية:
عن أرواح أموات جميع المسلمين والمسلمات

طباعة وإخراج
وليد محمود شكشك ٠٣ ٢١ ٧٦ ٤٣

لبنان - طرابلس

www.3alamatnisurah.com
www.3alamatnisourat.com

e-mail: info@alamatnisourah.com

علّمتني سُورة الدُّخَانْ

جمع وإعداد
م. عامر كبّارة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

أهدي هذا الكتاب إلى كلِّ الشباب والشابَّات،

وإلى كلِّ مَن يرغب في تَدَبُّر سورِ القرآن الكريم،

كما أهديه إلى عائلتي الكبيرة والصغيرة، وأحبائي،

وسائر المسلمين والمسلمات،

داعيًا اللهَ تعالى أن يردَّنا إليه ردًّا جميلًا، ويهدِيَنا صراطًا مستقيمًا،

ويغفر لنا ولوالدينا وأهلينا وسائر المسلمين؛

إنه سميع مجيب.. اللهمَّ آمين.

*****

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمَّةَ سبع سوَرٍ في القرآن الكريم تبدأ بـ (حم)، وتُعرَف بالحَوَامِيم، وهي: سورة غافر، وفُصِّلت، والشُّورى، والزُّخْرُف، والدخَان، والجاثية، والأحقاف، تجمع هذه السُّورَ خصائصُ عديدةٌ، فهي كلُّها سورٌ مكيةٌ، ولها هدف مشترك، وحتى نعرف هذا الهدفَ فلا بدَّ من أن نستعرض النُّقاط المشتركة التي تجمعها.

إن النُّقاط المشتركة بين السوَر التي تبدأ بـ «حم» هي:

١ -أنها كلها تبين أفضليَّة القرآن: فهي - جميعًا - تبدأ بالحديث عن قيمة القرآن الكريم وعظمته..

- ففي سورة غافر: ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢﴾،
- وفي سورة فصلت: ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾،
- وفي الشورى: ﴿حٰمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾،
- وفي سورة الزخرف: ﴿حٰمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾،
- وفي سورة الدخان: ﴿حٰمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾،
- وفي سورة الجاثية: ﴿حٰمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾،

- وفي سورة الأحقاف: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾.

٢- نجد في الحواميم تكرارًا لقصةَ سيدنا موسى عليه السلام وبني إسرائيل:

- ففي سورة غافر: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾،
- وفي سورة فصِّلت: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ ۝٤٥﴾،
- وفي سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ... ۝٤٦﴾،
- وفي سورة الدخان: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٨﴾، ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ۝٣٠﴾،
- وفي سورة الجاثية: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ... ۝١٦﴾،
- وفي سورة الأحقاف: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ ۝١٢﴾.

وقصة سيدنا موسى احتوت على محورين: علاقة سيدنا موسى مع فرعون، وكانت من أقوى المواجهات في صراع الخير والشر، والمحور الثاني: علاقة سيدنا موسى مع بني إسرائيل، وكانوا آخِرَ أمَّةٍ قادت الأرضَ قبل أمَّةِ سيدنا محمد ﷺ، فكانت هذه التجربة مهمة للأمة المسلمة حتى يتعلموا من أخطائها في استخلافهم وقيادتهم للأرض.

٣- كما تبيِّن الحواميم انتقالَ الكتاب من الأمة السابقة (بني إسرائيل) إلى أمة سيدنا محمد: ﷺ:

- ففي سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ

أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ...﴾، هذه الآية ﴿أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ هي آية محورية بين كل السُّوَرِ الحواميم، وهناك آيات أخرى تفيد نفس المعنى؛

- ففي سورة الجاثية: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا ﴿١٨﴾﴾،
- وفي سورة الزخرف: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾،
- وفي سورة الأحقاف: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا ... ﴿١٢﴾﴾.

٤- وفي الحواميم نجد التحذير من خطورة الفُرقة:

- ففي سورة فصلت: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ ﴿٤٥﴾﴾،
- وفي سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ .. ﴿١٤﴾﴾،
- وفي سورة الزخرف: ﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٦٥﴾﴾،
- وفي سورة الجاثية: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ ﴿١٧﴾﴾.

٥- وتطالعنا الحواميم بقضية الصفح والإمهال للإقدام في سبيل الدعوة:

- في سورة غافر: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ... (٥٥)﴾،

- وفي سورة الشورى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾،
- وفي سورة الزخرف: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾،
- وفي سورة الدخان: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾،
- وفي سورة الأحقاف: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴿٣٥﴾﴾،

بعد أن عرضنا العواملَ المشتركة بين السُّور، يبقى السؤال: ما المحور المشترك بين هذه السور؟ وللجواب على ذلك نقول:

بين الدعوة والمواجهة:

إن هذه السُّور الحواميم تأتي في نسق المصحف الشريف بعد سورة الزُّمَر وقبل سورة محمد، وإذا تأمَّلْنا أهدافَ هاتين السورتين نجدْ أنَّ سورة الزُّمَر تذكُر أهميةَ الدعوةِ إلى الله، بينما سورة محمد تذكُر أهميةَ القتالِ في سبيل الله لنُصرة الدين؛ أي: إن الحواميم بمجملها هي بمثابة مرحلة انتقالية بين الدعوة والمواجهة.

واجبات ومحاذير:

محور هذه السور: تنبيه الأمة إلى أنها أصبحت مسؤولة عن القرآن، عن منهج الله تعالى على هذه الأرض، وبالتالي فثمَّةَ واجباتٌ ومحاذير، وثمَّةَ نقاط أساسية وخطيرة تؤهلك لتكون مسؤولًا عن هذه الأرض؛ ولهذا بدأت كلُّ هذه السور بالحديث عن قيمة هذا القرآن، كما تحدثت عن موسى وبني إسرائيل وانتقال الكتاب منهم إلى أمة محمد ﷺ، وكل سورة من هذه السور تحدثت عن الوحدة وعدم الفرقة؛ فضياع بني إسرائيل والأمم السابقة كان سببه الفرقة، وتحدثت عن الصفح والإمهال؛ لأنها في مرحلة عرض الكتاب والتمسك به؛ فكان الصفح عن الآخرين مطلوبًا حتى يُعرَضَ عليهم الكتابُ عرضًا صحيحًا.

من خلال ما سبق نرى كيف تخدم سورة الدخان الهدف المشترك، وهو: أنكم مسؤولون عن هذه الأرض، وأن هناك واجبات ومحاذير يجب الانتباه لها..

لقد حذرت سورة الدخان من المظاهر المادية للحياة الدنيا؛ فترى فيها آيات شديدة لفناء الظالمين وكلِّ مَن سار سَيرَهم، قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وتصوِّر لنا السورة مشهدًا رهيبًا من مشاهد القيامة، وهو عذاب كلِّ مَن أَهْتَهُ القوةُ والسُّلْطة فأنسته طاعةَ الله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، إلى أن تصل إلى قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

وقد قُمنا في هذا الكتاب بتسليط الضوء على سورة «الدخان»، وتقديم شرحٍ لبعض معاني السورة بطريقة ميسَّرة وسهلة، مستفادة من بعض العلماء الأفاضل المعاصرين الثِّقات؛ لما في شروحهم من سهولة تساعد على تبسيط وتقريب المعاني للأذهان بصورة أكثر واقعية، وما تمَّ اختيارُه في هذا البحث هو اجتهاد بحتٌ، لا يقلِّل - على الإطلاق - من قيمة ما كتبه السلَفُ والمعاصِرون الآخرون عن هذه السورة الكريمة.

ونرجوا اللهَ عز وجل أن يكون هذا الكتابُ ومجموعته (سلسلة «علمتني سورة») قد أسهم وساعد في فهم هذه السور، ويسَّرَ استحضارَ الخُشوعِ أثناءَ قراءتها وتلاوتها، وحفَّزَ للعمل الصالح بغَرَضِ تزكية وتحصين النفس لكلِّ فردٍ منَّا، ومن ثَمَّ المجتمع الإسلامي، لتكوين الأمة كما أراد الله عز وجل لها، وكما وجَّه إليه رسوله الكريم ﷺ.

هذا، وقد أُخِذت شروحاتُ وتفاسير هذه السورة الكريمة كما يلي:

١ -معاني الكلمات والكثير من هداية الآيات من كتاب «أيسر التفاسير لكلام العلي القدير»، للشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله.

٢ -التفسير الموضوعي من كتاب «التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم»، للشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

٣ -التفسير المفصَّل من محاضرات وخواطر الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله، وقد نقَلنا تفسيرَه بتصرُّف.

وقد دقق وراجع هذا الكتاب الأستاذ محمد عماد قلب اللوز حفظه الله، الأستاذ في اللغة العربية والشريعة الإسلامية.

والله من وراء القصد، وهو وليُّ التوفيق، وهو نِعْمَ المولى ونِعم النصير.

سورة الدخان

سورةٌ مكية، وعدد آياتها (٥٩) تسع وخمسون آية، وترتيبها السورة (٤٤) الرابعة والأربعون في المصحف الشريف، وهي في الجزء الخامس والعشرين.

سبب نزولها:

لم يُذكَر سببٌ واحدٌ لنزول هذه السورة، وإنما ذَكر بعضُ العلماء أسبابَ نزولِ بعض الآيات فيها، وهي:

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إنَّ قريشًا لَمَّا استعصتْ[١] على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف، فأصابهم قحط[٢] وجَهْدٌ، حتى أكلوا العظامَ، فجعل الرجلُ ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجَهْد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾، فأُتِيَ رسولُ الله، فقيل: يارسول الله، اِسْتَسقِ[٣] لمُضَرَ (اسم قبيلة)؛ فإنها قد هَلَكَتْ، فاستسقى، فنزل المطرُ فَسُقُوا، فنزلت: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ١٥﴾، فلما أصابتهم الرفاهيةُ عادوا إلى حالهم السابق (من الكفر)، فأنزل الله: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾.

٢- ذكر النيسابوري في كتابه «أسباب النزول» عند قول الله تعالى في سورة الدخان: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾: قال قتادة:

١- استعصت: اشتدَّت عليه.

٢- القحط: احْتِباس المطر.

٣- استسق: اطلب لهم السقيا من الله تعالى.

نزلـتْ في عدوِّ الله أبي جَهل، وذلـك أنه قال: أَيُوعِدُني[1] محمدٌ؟! والله لأنا أَعَـزُّ مَنْ بين جَبَلَيها (يقصد: جبال مكة)، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقتله اللهُ يومَ بدر وأذلَّه وعيَّره[2] بكلمته.

سبب التسمية:

قال العلماء: سُـمِّيت «سورة الدخان» لأن الله تعالى ذكر فيها الدخانَ آيـةً مـن آياته التي أرهب بهـا الكافرين؛ حيث أصيبـوا بالقحط والمجاعة بسـبب تكذيبهم الرسـولَ، فبعث الله عليهم الدخانَ حتى كادوا يهلكون، ثم نجَّاهم بعد ذلك ببركة دعاء النبي ﷺ.

وقيل: إن الدخان سيأتي يوم القيامة، والله أعلم.

فضل السورة:

ورد في فضل سـورة الدخان العديد مـن الأحاديث الشريفة، إلا أنها ضعيفة، ولكنها – لكثرتها – ترتقي إلى درجة الحسن.

(١) عـن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ «حم» الدُّخَانِ في لَيلَةٍ أَصبَحَ يَستغفِرُ لهُ سَبعونَ أَلْفَ مَلَكٍ».

(٢) عـن أبي أمامـة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ «حم» الدُّخَانِ في ليلَةِ جُمُعةٍ أو يَومِ جُمُعةٍ بَنَى اللهُ له بَيتًا في الجَنةِ».

(٣) عن ابن مسـعود رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قرأ في المغرب «حم» التي يذكَر فيها الدخانُ.

---

١ – أيوعدني: يتهددني ويخوِّفني بالعقوبة.

٢ – عيَّره: نسبه إلى العار وقبَّح فِعلَه.

محاور السورة:

تحمل هذه السورةُ إلى المسلمين رسائلَ واضحةً، ومِن أهمِّها: التوحيدُ، والاعتقادُ بيوم القِيامة والبعث، وتثبيتُ الإيمانِ، والدعوةُ إلى تدبُّر القرآن، وإنذارُ مَن خالفه بسَلْبِ النعمةِ في الدنيا والآخرة، وقد تناولت:

١. ذِكْرَ نزولِ القرآنِ في ليلة القدر، وإرسالِ الرسول (الآيات: ١ - ٦).

٢. ثم انتقلتْ إلى ذِكرِ ما لاقاهُ النبيُّ ﷺ في دعوته من قومه وكذبهم ونفاقهم فبعد أن كشف الله عنهم العذاب انقلبوا على رسول الله ﷺ فبطش الله بهم في بدر وقتل الكثير من المشركين وعلى رأسهم رؤوس الكفر (الآيات: ٧ - ١٦).

٣. ثم انتقلتْ إلى الماضي، فذكرتْ قصةَ فرعون وغرقِه، وأشارتْ إلى قصةِ قومِ تُبَّعٍ للعبرة (الآيات: ١٧ - ٣٧).

٤. ثم انتقلت إلى المستقبل، واليومِ الآخر يومِ القيامة والحساب (الآيات: ٣٨ - ٤٢)، والجحيم وما فيها من العذاب (الآيات: ٤٣ - ٥٠)، والجنة وما فيها من النعيم (الآيات: ٥١ - ٥٩).

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ
مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾
أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ
﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ
إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾
ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا
إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ
﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ
كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾

معاني الكلمات:

١- حمٓ: أحد الحروف المقطَّعة، وتقرأ هكذا (حا ميم)، والله أعلم بمعناها.

٢- وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ: القرآنِ المُظْهِرِ للحَلال والحرام في الأقوال والأعمال والاعتقادات.

٣- إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ: أي: في ليلةِ القَدْرِ من شهرِ رمضان.

٤- فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ: فيها يُفْصَلُ كلُّ أمرٍ مُحْكَمٍ من الآجال والأرزاق وسائر الأحداث.

٥- أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا: أمرًا من عند الله تعالى.

٥- إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ: فالله تعالى هو مَنْ أرسلَ الرُّسُلَ، محمدًا ومَنْ قَبْلَهُ.

٦- رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ: أرسل اللهُ الرسُلَ رحمةً بالمرسَلِ إليهم من الأمم والشعوب.

٧- إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ: أي: إن كنتم متحققين بأنه خالق السماوات والأرض فاعلموا أنه - وحده - الإله المستحقُّ للعبادة.

٨- رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ: أي: رب الناس جميعًا، الأولين الذين من قبلكم والآخِرين.

٩- بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ: هم في شكٍّ من ربوبية الله، ويلعبون بالأقوال.

١٠- فَارْتَقِبْ: انتظِر.

١٠- بِدُخَانٍ مُّبِينٍ: هو ما كان يراه الرجلُ من قريش بين السماء والأرض من دخان لشدة الجوع.

١١- يَغْشَى النَّاسَ: أي يغطِّي أبصارَهم (يتخيلون) من شدة الجهد الناتج عن الجوع الشديد.

١٢- رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ: أي: إن كشفتَ عنَّا العذابَ آمنَّا بك وبرسولك.

١٣- أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ: كيف يتذكَّرون ويتَّعِظون بعد نزول العذاب.

١٤- تَوَلَّوْا عَنْهُ: أعرضوا عنه وتركوه.

١٤- مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ: يزعمون أنه ﷺ تعلِّمُه الكَهَنَةُ أو الشياطين.

١٥- كَاشِفُوا الْعَذَابِ: رافعوا العذاب عنكم (المجاعة).

١٥- إِنَّكُمْ عَائِدُونَ: أي: إلى الكفر والجحود.

١٦- الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ: أي: الأَخْذَةَ القوية التي أخذناهم بها يوم بدر؛ حيث قُتلوا وأُسروا، وقيل: بل اليطشة يوم القيامة.

١٦- إِنَّا مُنتَقِمُونَ: معاقِبون.

١٧- وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ: أي: ولقد اختبرنا قبلَ كفارِ قريشٍ قومَ فرعون (الأقباط).

١٧- وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ: موسى بن عمران عليه السلام.

١٨- أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ: أي: أرسِلوا معي بني إسرائيل.

١٨- إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ: أي: إني رسولُ الله إليكم، وأنا أَمينٌ على وَحْيِه ورِسالته.

من هداية الآيات

الآية: ٢ تقرير أنَّ القرآن الكريم كتابٌ من عند الله تعالى، أنزله الله في ليلة القدر في رمضان إلى السماء الدنيا دفعة واحدة، (كما ذكر رسول الله ﷺ) ثم أنزله من السماء الدنيا إلى سيدنا محمدٍ ﷺ مفصَّلًا حسب الحوادث على مدى ٢٣ سنة.

الآية: ٣ بيان فضل ليلة القدر؛ حيث نزل فيها القرآنُ.

الآية: ٤ تقرير عقيدة القضاء والقدر، وأنَّ اللوحَ المحفوظَ وأقدارَ الله للمخلوقاتِ كلُّها مفصَّلةٌ بحكمةٍ من الحكيم الخبير؛ فكُنْ مطمئنًا راضيًا.

الآية: ٤ في ليلة القدر يفصِلُ اللهُ تعالى كلَّ أمرٍ محكمٍ يتعلقُ بالأرزاق والآجال وغيرها مما يُحْدِثُهُ اللهُ في السنة القادمة.

الآية: ٥-٦ أن إرسالَ الرُّسُلِ ونزولَ القرآنِ رحمةٌ من الله بعباده.

الآية: ٦ صِدْقُ وَعْدِ الله لرسوله وللمؤمنين؛ فهو سبحانه السميع العليم.

الآية: ٦ قال اللهُ تعالى عن رُسُلِهِ: (رحمةً مِن ربِّكَ)؛ فلابدَّ من عَدِّ أوامرهم ونواهيهم رحمةً من الله تعالى (لأنه عرف الخلق مكامن وطرق الخير والشر)، سواءٌ وافقَتْ أهواءَنا أمْ لم توافق.

الآية: ٨-٩ لم يكُنْ إقرارُ المشركين بربوبية الله تعالى عن علم يقينيٍّ، بل هم مقلِّدون في ذلك لآبائهم؛ ولهذا لم يحملهم على توحيد الله في عبادته، وهذا شأنُ كلِّ مُعْتَقِدٍ ضعيف.

الآية: ٩ الاستخفاف بشرع الله خطرٌ؛ فمصير ذلك: العذابُ لا محالة.

الآية: ١٠-١١ إخبارُ القرآنِ بالغيبِ وصِدقُهُ في ذلك، حيث قال تعالى لنبيه: سأُنزِلُ إلى السماء دخانًا واضحًا يراه الكافرون بأعينهم، وهذا ماحصل تمامًا...

الآية: ١٢ الإيمان عند مُعاينةِ العذابِ لا يُجْدِي ولا ينفع. (المعاينة: رؤية الشيء بالعين).

الآية: ١٣ الالتزام بشرع الله مسؤوليةٌ جماعيَّةٌ: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾، وفرديةٌ: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر:٢٣].

الآية: ١٤ بيانُ ما قابلتْ به قريشٌ دعوةَ الإسلامِ من جحودٍ وكُفران. (الجحود: عدم الاعتراف بالحق مع العلم به).

الآية: ١٥ تقرير أنَّ اللهَ - وَحْدَهُ - هو الذي يصرِفُ العذابَ عن العباد.

الآية: ١٥ أن اللهَ قد يكشف بعضَ العذابِ في الدنيا ليراجع العبادُ أحوالهم؛ فيجب عليهم أنْ يرتدعوا بهذه العقوبة (الإنذار)، وإلَّا عادوا للذنوب فعاد عليهم العذاب - والعياذ بالله -. (الارتداع: الكَفُّ عن السوء والامتناع عنه).

الآية: ١٦ اللهُ ينتقم من المشركين والكافرين والجبارين في الآخرة أو في الدنيا في توقيت لا يعلمه إلا هو.

الآية: ١٧ وجود تشابه كبير بين فرعون وكفار قريش (وكذلك مَنْ هم أمثالهم في هذه الدنيا)، وذلك في الكفر والعُلوِّ والكبرياء والظلم.

الآية: ١٧ يجب الاعتبار بما سلف من أحداث في الكون كما أخبرنا الله تعالى في كتابه.

الآية: ١٨ إنَّ من مهمات الأنبياء: تحرير المستضعفين من قبضة المتكبرين.

وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ
بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا
رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم
مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ
تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ
كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾
فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ
نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ
﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا
نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ
خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ
﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾
مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

معاني الكلمات:

١٩- وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ: أي: لا تطغوا على الله فتكفروا به وتعصُوه.

١٩- إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ: السلطان هنا: الحُجَّة الواضحة التي تدل على صدقي في رسالتي.

٢٠- وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ: أي: وإني قد اعتصمتُ بربي وربِّكم واستجرتُ به أن تقتلوني رجمًا.

٢١- وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ: أي: إن لم تصدقوني فيما جئتكم به فخلُّوا سبيلي واتركوني.

٢٢- فَدَعَا رَبَّهُۥٓ: فلما كذَّبه فرعونُ وقومُه وهمُّوا بقتله نادى ربَّه.

٢٢- أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ: مجرمون بالكفر والظلم.

٢٣- فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ: أي: أجابه ربُّه أنْ أَسْرِ (والإسراء: المشي ليلًا) ببني إسرائيل ليلًا، وفرعون وجنده سيتبعونكم ليردُّوكم.

٢٤- وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا: أي: وإذا اجتزْتَ - أنت وقومك - البحرَ فاتركه ساكنًا كما هو حين دَخَلْتَه.

٢٤- إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ: سيُعاقبون بالغَرَق.

٢٥- كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ: الجنات هنا: البساتين والحدائق الغنَّاء.

٢٦- وَمَقَامٍ كَرِيمٍ: المنازل الحسنة، والمحافل المزيَّنة.

٢٧- وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ: حياة النعمة والتَّرَف.

٢٨- وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ: أي: مَنَحْنا هذه النِّعَمَ والبساتين مِن بعدهم لبني إسرائيل.

٢٩- فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ: وذلك هَوانهم على الله بسبب كفرهم وظلمهم.

٢٩- وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ: فلَمْ يُمْهِلْهُم حتى يتوبوا.

٣٠- مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ: وهو قَتْلُ فرعونَ لأبنائهم واستخدامه لنسائهم.

٣١- عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ: متكبِّرًا جبَّارًا مُسرفًا على نفسه.

٣٢- وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ: أي: اصطفَينا بني إسرائيل على أهل زمانهم من الإنس والجن.

٣٣- وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ: أي: أعطيناهم من النِّعم (المَنِّ والسَّلْوى) ما فيه اختبارٌ واضح.

٣٤- إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ: الإشارة إلى مُشْركي قريش.

٣٥- إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ: أي: لا حياة بعدها ولا موت، وهذا تكذيب بالبعث الآخر.

٣٥- وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ: أي: لن نُبعَثَ أحياءَ من قبورنا بعد موتنا.

٣٦- فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ: أي: إن كنت صادقًا - يامحمد - في دَعواك أننا سنُبعث أحياءَ بعد موتنا، فأَعِدْ آباءنا الذين ماتوا.

٣٧- أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ: أهؤلاء المشركون خيرٌ في القوة والمَنَعَة أم قومُ تُبَّع (الذين كانوا سادة اليمن) والذين مِن قبلهم كعَاد؟!

٣٧- أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ: أي: أنزلنا بهم عقوبتَنا؛ إنهم كانوا قومًا مجرمين.

٣٨- لَٰعِبِينَ: أي: عابثين.

٣٩- مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ: ما خلقناهما إلا لأمْرٍ اقتضَى خَلقَهما، وهو أن يُذْكَر اللهُ فيهما ويُشْكَر.

مـن هدايـة الآيـات

الآية: ١٩ ذَمُّ العُلُوِّ في الأرض، وهو التكبُّرُ والإسرافُ في كل شيء؛ فوجَبَ الابتعاد عن ذلك.

الآية: ١٩ الاستخفاف بالأوامر والنواهي الواردة في القرآن الكريم أمرٌ عظيمُ الخطرِ؛ فالآمِرُ الناهي لنا هو الله سبحانه وتعالى.

الآية: ٢٠ وجوب الاستعاذة بالله تعالى والاستجارةِ به وَحْدَهُ؛ إذْ لا مُجيرَ – على الحقيقة – إلا هو سبحانه.

الآية: ٢٢ مشروعية دعاءِ الله تعالى على الظالمين والكفار عندما لا يستجيبون للدعوة ويحاربون أهلَها، وسؤالِه النصَرَ عليهم والنجاةَ منهم.

الآية: ٢٣ على الرغم من أنَّ الأنبياءَ مؤيَّدون بالمعجزات، إلَّا أنهم مأمورون بالأخذِ بأسباب السلامة والنجاة، وعلينا الاقتداءُ به.

الآية: ٢٤ رأى فرعونُ وجندُه البحرَ وهو منفرِجٌ مفتوحٌ معجزةً لموسى، واقتحموه! وهكذا هم أهلُ الإلحادِ، يرون الآيات فلا يعتبرون بها، ويرونها مجردَ ظواهرَ طبيعة.

الآية: ٢٤-٢٩ بيانُ سُنَّةِ الله في سَلب النِّعَمِ وإنزالِ النِّقَمِ بمَنْ كفرَ بنِعَمَ الله، فعصى ربَّه وأطاع هواه ونفسَهُ، فتَرَكَ العباداتِ، واتَّبع الشهواتِ، وترك القرآنَ، واشتَغل باللهوِ، وأعرَضَ عن ذِكر الله، وأقبل على الدنيا ومَفاتِنِها.

الآية: ٢٨ مَنْ لم يشكُرْ نِعَمَ الله ولم يُؤَدِّ حقَّها فإنها قد تُسلَب منه وتنتقل إلى غيره. (تسلب: تؤخَذ منه قسرًا).

الآية: ٢٩ بيان هَوَانِ أهلِ الكفرِ، وكرامةِ أهلِ الإيمان والتقوى على الله وعلى الكون كلِّه، حتى إنَّ السماءَ والأرضَ تبكيهم إذا ماتوا.

الآية: ٢٩ لِيَكُنْ لوجودك في الدنيا أَثَرٌ نافعٌ تُعرَفُ به في المَلَأ الأعلى وتُفْتَقَد لأجله في الأرض بعد رحيلك. (الملأ الأعلى: الملائكة المقربون من الله تعالى).

الآية: ٣٢ قد يكثُر العلماءُ في قومٍ، ولكنهم لا ينتفعون بهم، كما حصل مع بني إسرائيل؛ فوجب الانتباه لذلك.

الآية: ٣٣ بيانُ أنَّ الله يبتلي (يختبر) عبادَه بالخير والشرِّ في الدنيا ليرى مدَى إخلاصِهم في العبادة، وليُقيمَ عليهم الحجةَ في يوم الحساب.

الآية: ٣٧ الإجرام هو سبب الهلاك والدمار كيفما كان فاعله في الدنيا، وسيُجازَى بالنار يوم القيامة.

الآية: ٣٧ تُبَّعٌ الحِمْيَرِيُّ كان عبدًا صالحًا ملِكًا حاكمًا، وكان قومُه كافرين، فأهلكهم الله وأنجاه ومَنْ معه من المؤمنين الصالحين، ففي هذا الملكِ الصالحِ عِبرةٌ لمَن يعتبر.

الآية: ٣٨-٣٩ تنزَّهِ الربُّ تعالى عن اللعب والعبث فيما يَخْلُقُ ويَهَبُ، ويأخذ ويعطي ويمنع. (العبث: عملُ ما لا فائدةَ فيه).

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى
عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾
طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ
ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ
صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ
﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ
فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا
مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

معاني الكلمات:

٤٠- إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ : أي: إن يومَ القيامة الذي يُفصَل فيه بين الخلائق هو ميعادهم أجمعين.

٤١- يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا : أي: يوم لا ينفع قريبٌ قَريبَه بدَفْعِ شيءٍ من العذاب عنه.

٤١- وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ : لا ينصُر بعضُهم بعضًا.

٤٢- إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ: أي: إلا مَن رحمه اللهُ؛ فإنه يدفع عنه العذابَ وينصُره.

٤٢- إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ: الغالبُ المنتقِم من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه.

٤٣- إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ: وهي مِن أَخبَثِ الشجَرِ، تنبت في جهنم.

٤٤- طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ : أي: ثمرُها طعامُ ذَوِي الآثام الكبيرة، وأكبر الآثام: الشرك بالله.

٤٥- كَٱلْمُهْلِ : الزيت المغليُّ.

٤٦- كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ : كغَلَيانِ الماءِ شديدِ الحرارة.

٤٧- خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ : يقال لزبانية جهنم: خُذوه وجُرُّوه بغلظةٍ وشِدَّة.

٤٧- إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ : أي: إلى وسط جهنم.

٤٨- ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ : صُبُّوا فوق رأسه الماءَ المغليَّ.

٤٩- ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ : أي: ذُق العذابَ؛ إنك كنتَ تقول: ما بين جَبَلَي مكةَ أَعَزُّ ولا أكرَمُ مِنِّي.

٥٠- مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ: أي: إن هذا العذاب الذي كنتم تشكُّون فيه.

٥١- إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ: الذين اتَّقَوا ربَّهم في الدنيا هم في مَأْمن من الآفاتِ والأحزان.

٥٢- فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ: البساتين وعيون المياه.

٥٣- مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ: السندس: ما رَقَّ من الحرير، والإستبرق: ما غلُظ منه.

٥٣- مُّتَقَٰبِلِينَ : يقابل بعضُهم بعضًا.

٥٤- بِحُورٍ عِينٍ : نساءٍ بِيضٍ، واسعاتِ الأعْيُن.

٥٥- يَدْعُونَ فِيهَا : أي: يطلبون الخَدَمَ فيها أنْ يأتوهم بكلِّ فاكهةٍ.

٥٥- ءَامِنِينَ : أي: من انقطاعها ومِن مَضَرَّتِها.

٥٦- لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ : أي: يَظَلُّونَ أحياءَ.

٥٧- فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ : كل ذلك النعيم فضلٌ وإحسانٌ من الله تعالى إليهم.

٥٨- فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ: أي: سَهَّلْنا القرآنَ بلُغَتِكَ.

٥٨- لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ : أي: يتَّعِظُون فيؤمنوا ويوحِّدوا، لكنهم لا يؤمنون.

٥٩- فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ : أي: انتَظِر هلاكَهُم - يا محمد -؛ فإنهم مُنتظِرون هلاكَكَ.

من هداية الآيات

الآية: ٤٠ تقرير عقيدةِ البعث والجزاء في يوم الفصل والحساب (القيامة).

الآية: ٤٢ ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾، يومَ الفصلِ لا ينفعُنا إلا أنْ يتغمَّدَنا اللهُ برحمته، فاعملوا في الدنيا ما يجعلكم أهلًا لها في الآخرة.

الآية: ٤٣-٥٠ بيانُ عِظَمِ عذابِ النارِ، وفظاعةِ ما يلاقيه ذوو الآثامِ الكبيرة فيها؛ فوجب الحذر من ذلك.

الآية: ٤٩ لا يَغُرَّنَّكَ عِزُّ البعضِ ورِفعَتُهم في الدنيا؛ فكَمْ من عزيزٍ في الدنيا ذليلٍ مُهَانٍ هناك (في الآخرة)، فلا غرور ولا كرامة إلا بالدين القويم (الإسلام لله تعالى، والعمل بما أمر).

الآية: ٤٩-٥٠ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾، صورةٌ مُفْزِعَةٌ.. من أشدِّ أنواعِ العذاب في النار: العذابُ النفسيُّ بالتَّهَكُّم والسخرية من المعذَّبين، وهو العذابُ المُهينُ.

الآية: ٥٠ ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾، توبيخٌ من الله تعالى للمكذِّبين والمُشكِّكين والمجادِلين بغير علم.

الآية: ٥١ فضلُ التقوى، وكرامةُ أهلِها، والتقوى هي: خشيةٌ من الله، تَحْمِلُ على طاعةِ الله بفِعْلِ محابِّه وتَرْكِ مَكارِهِه.

الآية: ٥٢-٥٧ نعيمُ أهلِ الجنة يجب أنْ يُرغِّبَنا للعمل في الدنيا لهذا المقام في الآخرة.

الآية: ٥٨ بيان الحكمة من تسهيل وتيسير فهم وحفظ القرآن الكريم ومعانيه للعباد، وهي الاتعاظُ المُقْتضِي للتقوى.

الآية: ٥٨ الفوز العظيم هو النجاة من النار ودخولُ الجنة برحمة الله تعالى.

الآية: ٥٩ الله تعالى ينصُر عبادَه المؤمنين (في وقت يحدده هو سبحانه)؛ لذلك يجب الصبر والترقُّب؛ فوعدُ اللهِ حقٌّ، وإن طال الزمن.

سورة الدخان[1]

﴿حمٓ ۝١﴾ بدأت السورةُ بقَسَم بالقرآن الكريم، ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ أي: الواضح الجَلِيِّ[2]، ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، هي - يقينًا - ليلةُ القدر، من ليالي رمضان. وأخطأ المفسِّرون الذين جوَّزوا[3] أنْ تكونَ ليلةَ النصفِ من شعبان! وإنما بُورِكت الليلةُ بما نزل فيها من الوحي الخاتم، فهو وحيٌ عامر بالحكمة والنور والخير الكثير، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩]، ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وبركةُ هذا الكتابِ أنه يصنع مِن البَشَرِ ملائكةً، وأنه صنع من العَرَبِ الهُمْلِ[4] أمَّةً ذاتَ حضارةٍ لا تغيب عنها الشمس. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾ للطغيان السائد[5]، وهادِمِي قواعِدِه، وهذا من قَبِيل التخلية قبل التحلية[6]، فما قامت عدالةُ الإسلام إلا بعد الإجهاز[7] على الممالك الظالمة التى سبقته. ومضتِ الآياتُ تؤكد عقيدةَ التوحيدِ، وحاجةَ الأوَّلين والآخِرين إليها.

ومعروفٌ أنَّ العرب قاوموا - أوَّلَ أمرِهم - دعوةَ الإسلام،

١- من كتاب التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي رحمه الله.

٢- الجَلِيُّ: البَيِّنُ السَّاطع.

٣- جوزوا: أباحوا.

٤- الهمل: المتروكين المهمَلين.

٥- السائد: المنتشر بقوة.

٦- التخلية قبل التحلية: تنظيف المتراكمات السيئة قبل وضع العمل الصالح.

٧- الإجهاز: إتمام القتل.

وأحرجوا[١] حَمَلَتَها وأخرجوهم من ديارهم، فدعا النبيُّ ربَّه: «اللَّهمَّ، أَعِنِّي عَلَيهِمْ بِسَبْعٍ كَسَبْعِ يوسُفَ» [رواه البخاري عن ابن مسعود] (أي بسبع سنواتٍ صعابٍ كما كانت أيام سيدنا يوسف حين فَسَّر رُؤيا عَزيزِ مصر)، فأَجْدَبَت[٢] الأرضُ، وانقطع المطرُ، وجاع المشركون، وأظلمت الدنيا في عيونهم، فكأنَّ الجوَّ غطَّاه الدُخان، وملأتْهُ غَبرة[٣]، فذهب ناسٌ إلى رسول الله ﷺ يسألونه أنْ يعفوَ عن قومه! ولكنهم بعد العفو عنهم وعودةِ العافية لهم نكثوا[٤]!! ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾، وقد انتقم الله منهم يوم بدر، فأهلك رؤساءَ الكفرِ، وألحَقَ بهم هزيمةً مُخْزِيةً[٥].

ذلك تفسير الجمهور للآيات، وهناك رأيٌ آخرُ أنا إليه أَمْيَلُ: ربما كان الدخان آية[٦] يكشف عنها الغَدُ، وكما يَوْجَلُ[٧] العالمُ الآن من ثُقبِ (الأوزون) وخَطَرِهِ على الناس، قد تتمخَّضُ[٨] الآفاقُ عن مصيبة داهمة[٩] وعذابٍ أليم لَمَا شاع في الأرض من إلحادٍ وفسوق[١٠]، ولَمَا يلقاه الإسلامُ من خصومة وجفاء[١١]، ولَمَا يُوَجَّه إلى شخصِ الرسول من مفتَريات[١٢]،

١- أحرجوا: أوقعوهم في الحرج وضيَّقوا عليهم.
٢- أجدبت: صارت يابسة.
٣- الغبرة: دقيق التراب.
٤- نكثوا: نقضوا الاتفاقَ.
٥- مخزية: مخجلة ومهينة.
٦- آية: معجزة أو عجيبة.
٧- يوجل: يخاف ويفزع.
٨- تتمخض: تُسفِرُ أو تُنتِج.
٩- داهمة: مفاجئة.
١٠- فسوق: عصيان.
١١- جفاء: غلظة.
١٢- مفتريات: اختلاق وظلم.

عندئذ يجـأر[1] الناسُ إلى الله طالبين الرحمـة، ونادمين على موقفهم الخائن من الرسـالة الخاتمة، فهل يصدقون؟ أيًّا ما كان الأمرُ، فإن الحساب الجامع عنـد اللقاء الأخير، يومئذ تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما قدَّمتْ وأخَّرتْ!! (أي يجزيهم الله تعالى من في الآخرة عند الحسـاب النعيم لأصحاب الأعمال الصالحة، والجحيم لأصحاب الشرور والمنافقين والكافرين).

وقد بيَّنتِ السورةُ أنَّ حَمَلَةَ الوَحيِ الأُوَلَ مَسَّتْهُمُ البأساءُ والضَّرَّاءُ[2]، فإن موسـى ناشد فرعونَ أنْ يُطْلِقَ سراحَ قومه، وأنْ يترُكَهم ينطلقون معه إلى بلد آخَرَ، ولكن فرعونَ أبَى إلَّا حَبْسَـهُم على الأذى، فماذا كانت عاقبتَه ومَنْ مَعَهُ؟ أُهلِكوا جميعًا.

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾. والتاريـخُ يُعيـدُ نفسَـه، وعاقبةُ الظَّلَمَةِ في كلِّ عصرٍ واحدةٌ. والمهمُّ أنَّ أصحابَ الدعواتِ يرتفعون إلى مُسـتواها، وتُصَدِّقُ أعمالُهم أقوالَهم، فإذا آلَ الأمرُ[3] إليهم كانوا نماذجَ للعدلِ والطُّهْرِ! والمُحزِنُ أنَّ الصلاحَ قصيرُ الأجَلِ في حياة أغلبِ المُتَدَيِّنينَ؛ فسُرْعانَ ما تغلبهم أهواؤُهم ويَحيدون عن تراث أنبيائهم.

يقول تعـالى في اليهـود: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾؛ فماذا فعلوا بعدما تحرروا ومَلَكوا؟ أظهروا في الأرض الفسـادَ فمزَّقهُمُ[4] القدرُ الساهرُ (الله تعالى) واختار القدرُ بعدَهم العربَ، وأورثهم القرآنَ العظيمَ، فساروا به أشواطًا،

١- يجأر: يرفع صوته.
٢- البأساء والضراء: الفقر والمرض.
٣- آل الأمر: رجع الأمر وصار إليهم.
٤- مزقهم: شتَّتهم.

ثم تخلَّوا عنه إلا قليلًا، فأدركهم العقابُ العتيد[١] المُرْصَدُ[٢] لكل منحرِف، فهم الآنَ شَراذِمُ[٣] يَلِغُ[٤] في دَمِها كلُّ جبارٍ!

إن الذين يُخلصون للوحي يرثون خيرَ الدنيا والآخرة، ذلك هو وَعْدُ الله للمؤمنين الصالحين. وأصحابُ الحضارةِ الحديثةِ على قَدْرٍ كبيرٍ من الذَكاء، بَيْدَ أنهم لا يلتفتون للحياة الآخرةِ، ولا يخطُر ببالهم أنَّهم مُلاقُو الله يومًا، وهم يُشبِهون أهلَ الجاهليةِ من عرب الجزيرة الذين كانوا يَسخَرونَ من الحياةِ بعد الموتِ، ويَعُدُّونَهُ حديثَ خُرافةٍ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، وسيجمَعُ اللهُ الآباءَ والأبناءَ، ويحاسبُ كلًّا على ما قَدمتْ يداه، وإلا كانتِ الحياةُ عبثًا باطلا[٥]، وكِفاحًا فارغًا هازلا[٦]، ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾. والحقُّ الذي خُلِقت به السماواتُ والأرضُ يَظهَرُ في القوانينِ الدقيقةِ التي تَحْكُمُ الذَّرَّةَ والمَجَرَّةَ[٧]، والنمْلةَ والفيلَ، والسُّهول والغاباتِ، والبَرَّ والبحرَ! وهناك علومٌ جادَّةٌ تبحث في هذه الأرجاء كلِّها، وتعودُ بالعجائب الهاتِفَةِ[٨] بِعَظَمَةِ الخالق.. وكذلك يظهرُ هذا الحقُّ في

١- العتيد: الشديد.
٢- المرصد: المهيَّأ والمُجَهَّز.
٣- شراذم: جماعات قليلة ممزقة.
٤- يلغ: يشرب.
٥- عبثًا باطلًا: بلا جدوى.
٦- هازلًا: ضعيفًا.
٧- المجرة: مجموعة كبيرة من النجوم.
٨- الهاتفة: المنادية.

حسـابٍ أخيرٍ يَفصِلُ بين المسـلمين والمجرمين، والذاكريـن والغافلين[1] وذوِي الضمائـر الحيَّةِ والضمائـرِ الميتةِ! ويمتـاز القرآنُ الكريـمُ بأنه غَلَبَ ضَجيـجَ[2] الحياةِ البشريةِ بوَعدِهِ ووَعِيدِهِ، وأثبَـتَ من صُورِ الدارِ الآخرةِ ما يَنفِي الغرورَ بهذه الدار الدنيا.

وقد خُتمت سورةُ الدخانِ بأحد هذه النماذج: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾، مـاذا ينتظـر الأشرارَ؟ ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، ومـاذا ينتظـر الأخيـارَ[3]؟ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

إن اللهَ أنـزل القرآنَ على محمـدٍ لِيُوقِظ الغافلين، ويصنع بـه أُمَّةً ذاتَ رسـالةٍ عظيمة، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

١- الغافلين: الساهِينَ المُهْمِلِين.

٢- ضجيج: الضوضاء والصياح.

٣- الأخيار: جمع (خَيِّر)، وهم الصالحون.

التفسير المفصل
(لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي حفظه الله)

بسم الله الرحمن الرحمن

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾، الحروف التي افتُتِحتْ بها بعضُ السُّوَر - ومنها «حم» - وقفَ العلماءُ منها مواقفَ متعددةً، من ذلك:

١ - أنها دليلُ إعجازِ القرآنِ الحكيم؛ فهذا الكتابُ الذي بين أيدينا مؤلَّفٌ من كلماتٍ، والكلماتُ مؤلَّفةٌ مِن حُروف، ومع ذلك فهذا الكتابُ أَعْجَزَ[١] أيَّ أَحدٍ أنْ يأتيَ بمثله كلِّه، أو بسورة واحدة مثلِ سُوَره، بل حتى ولو آية واحدة.

ومثالُ هذه الأحرفِ: الإنسانُ، كيف أنَّه مركَّبٌ من موادَّ مأخوذةٍ من التراب، لكنْ لو جِئنا بهذا التراب وعالجناه، هل بالإمكان أنْ يَغْدُوَ[٢] إنسانًا ينطِقُ ويتكلَّمُ ويُفكِّر؟ أيُّ إعجازٍ بالخَلْق! وهذا الحليبُ، مَن يأتي به؟ يأتينا من البقرة، والبقرةُ تأكل العُشبَ، وهل بإمكانِ كلِّ مَن في الأرضِ أن يصنعوا من العشبِ حليبًا؟! والبيضة، من أين تأتي بها الدجاجةُ؟ تأكلُ ممَّا في الأرض، فهل بالإمكان أن نأخذ ما تأكله ونصنع منه بيضة؟ لا والله، ولله المثل الأعلى، فهذه الحروف التي بين أيدينا هي التي نُظِمَ منها آياتُ القرآنِ الكريم، ومع ذلك يعجز الإنسانُ عن أنْ يأتي بسورةٍ من هذه الآياتِ، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ[٣] مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ

---

١ - أعجز: أظهرَ عَجْزَهم.

٢ - يغدو: يصير.

٣ - ريب: شك.

مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا[1] ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [سورة البقرة].

٢ - المعنى الثاني: أن هذه الحروف هي أوائل لأسماء الله الحسنى.

٣ - وبعضهم قال: الله أعلم بمراده، والقرآنُ الكريمُ حمَّالُ أوجهٍ[2]، والله أعلم.

﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾، الله سبحانه وتعالى أقسم بهذا الكتاب، والله جلّ جلاله إذا أقسم بشيء فليُبَيِّن للناس قيمةَ هذا الشيء.

وكتاب الله عز وجل مُبين، أي: واضح العبارة والبيان، فالآيات المتعلِّقة بأصول العقيدة وبالأمر والنهي آياتٌ مُحْكَماتٌ لا تحتاج إلى تفسير.

أحيانًا يتوهَّم الإنسانُ أن القرآن بحرٌ، مَن غاص[3] فيه هَلَك، والحقيقةُ أنَّ تسعة أعشارِ كلام الله لا يحتاج إلى تفسير.

أمثلة واضحة لذلك:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم:٨].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ[4] قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات:١١].

عندما تقرأ الآيات في القرآن الكريم تجدها - في معظمها - واضحة لا تحتاج إلى تفسير، ولحكمة بالغة جاءت بعض الآيات

---

١ - وقودها: مادة اشتِعالِها.

٢ - حمال أوجه: مفرداته لها دلالات واسعة.

٣ - غاص: انغمس.

٤ - يسخر: يهزأ.

متشابهات[1]، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:٧]، فهنالك حِكَمٌ كثيرةٌ من وجود آياتٍ متشابهات: منها أنَّها ظَنِّيَّةُ الدلالة؛ فيكون للعلماء دَورٌ في فهمها وتفسيرها واكتشاف مضامينها[2] وتوجيهها وِجْهَةً خاصة لاستنباط أحكام اجتهادية وتفصيلية غنيَّة جدًّا تَسَعُ كلَّ الحالاتِ وكلَّ البِيئاتِ، وكلَّ الظُّروف، والإنسانُ حين يفهم آيةً متشابهة، يعبِّر فيها عن حُسن ظنِّه بالله عز وجل، فلو أنك قرأتَ قولَه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [النحل:٩٣]، وعرفتَ اللهَ لعرفتَ أنَّ الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا وليهدينا سواء السبيل؛ فعندئذٍ تفسِّر هذه الآيةَ تفسيرًا يتناسب مع كمال الله عز وجل؛ فهذا الإضلال الذي عُزِيَ إلى الله عزوجل هو الضلال الجزائي المبنيُّ على ضلال اختياري من الإنسان نفسِهِ، الذي لا ينصاع إلى الهدى الذي أرشده الله إليه؛ فالنتيجة ضلاله باختياره أولًا.. ثم يجزيه الله تعالى بأن يتركه على ضلاله، لما يعلم سبحانه بأنه لافائدة من أن يهتدي بعد أن يسر له هدايته.

فالآيات المتشابهات تحفِّز الهمم[3]، وتخلق التنافس الشريف بين العلماء، وقد يجتهد المجتهدون في فهمها مناحي عدة، وهذه المناحي تغطي كل الحالات المستجدة والبيئات والتطورات.

إذًا فالإسلام فيه ثوابتُ وفيه متغيِّرات، الثوابت تؤكِّدها الآياتُ المحكمات، والمتغيِّرات تغطيها الآياتُ المتشابهات.

لو فرضنا أنك قلتَ: أعطِ فلانًا ألف درهم ونصفه، أمرٌ متشابه؛ هل هي ألف وخمس مئة أم ألف ونصف درهم؟ الهاء تعود على الدرهم أم

١- متشابهات: لها أكثر من معنى.

٢- مضامينها: ما تحتويه.

٣- تحفز الهمم: تدفع بالاجتهاد والعزم لعمل ما.

على الألف؟ فإن عادت على الدرهم فهي ألف ونصف درهم، وإن عادت على الألف فألف وخمس مئة، وهذا نصٌّ متشابه، فالإنسان يمتحن[1] به.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾، قال بعض العلماء: إن هذا القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في شهر رمضان وفي ليلة القدر ذاتها، ثم نزل تِباعًا على النبي ﷺ نزولًا بحسب الوقائع والمناسبات على مدى ٢٣ سنة، وبعضهم قال: ابتدأ نزولُه في رمضان، لكن الذي يعنينا أن هذه الليلة المباركة عاد خيرُها على البشرية جمعاء؛ حيث سعد الناس في حياتهم عندما عرفوا ربهم من خلال هذا القرآن العظيم.

ولتقريب المعاني: ربما تكون عاصيًا، وتسهر سهرة مع صديق مؤمن، فيلفت نظرك إلى أشياء في الدين، أو إلى آيات في كتاب الله، أو إلى حكمة وجودك في الأرض؛ تنتبه وتصحو فتتوب، وتصلي، وتغُضُّ بصرَك، وتُحرر دَخْلَكَ[2]، وتضبط جوارحك، تشعر أنك ترقى وترقى، وتوفَّق في عملك، وتوفق في زواجك، وتشعر بقيمة وجودك في الحياة، بِعِظَم الرسالة التي تحملها، فتقول: والله كل هذا الخير جاءني في تلك الليلة التي سهرت فيها مع فلان، وقد كانت هذه الليلة سبب هدايتي وسعادتي، وإنها ليلة مباركة.

في حياة الإنسان أيام مباركة و أيام شؤم[3]، واللحظة التي تتعرف على الله فيها، وتهتدي إليه هي مباركة بكل المقاييس.

ومعنى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ أي: إن البركة والخير والرحمة الواسعة، نزلت من السماء إلى الأرض حينما نزل هذا القرآن الكريم على

١- يمتحن به: يختَبَر به.

٢- تحرر دخلك: تتحرَّى المال الحلال.

٣- شؤم: مكروه وشر.

النبي العدنان عليه الصلاة والسلام في هذه الليلة.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣﴾، الإنـذار[1] دليلُ رحمةِ الله عز وجل؛ فربنا عز وجل دائمًا ينذر عباده من مغبة[2] أعمالهم رحمةً بهم.

﴿فِيهَا﴾، أي: في هذه الليلة التي نزل فيها القرآن.

﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾، الآية دقيقـة جدًّا، يفرق: يتَّضِح ويظهر ﴿كُلُّ أَمْرٍ﴾.

مـن الحكمة أن يبـين اللهُ كلَّ أمـرٍ، فالقرآن الكريم هـو كتاب هداية وبيان وإرشـادٍ، واللهُ عـز وجل بيَّن أوامرَ وقضايـا وأغفل أُخرى، فالذي مـن الحكمة أن يبيِّنه بيَّنه، والذي أغفله فمن الحكمة أنْ يُغفِله. إذًا فهنالك اصطفاء[3] في كتاب الله.

القرآن سـكت – مثلًا – عن أنواع الطعام، فكُلْ ما شئت، ولكن من غير إسراف ولا كبرياء...

ولبـس أحدهـم – مثلًا – ثيابًا بيضـاء والآخر ثيابًا ملونـة، اِلبس ما شـئت، إنما يجب أن يكون سـاترًا مـن دون إسراف ولا كبريـاء، وكذلك التفاصيـل المتعلقة بالبيوت، الغرف... إلى ما هنالك من قضايا مسـكوت عن تفاصيلها.

أمـا قضايا المـرأة ففيها تشريعـات، وكذلك قضايا كسـب المال فيها تشريعـات... فكل قضية مـن الحكمة أن تُبَـيَّن بيَّنها اللهُ عـز وجل، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سـورة المائدة: ٣]، اليوم أكملت (الكمال نوعي)، وأتممت

---

١ – الإنذار: الإشعار بوقوع أمرٍ ما لأخذ الحيطة والحذر.

٢ – مغبة: عاقبة.

٣– اصطفاء: انتقاء واختيار.

(الإتمـام عددي)، مجموع القضايا التي عالجها القـرآن تامٌّ لا يحتمل قضية جديدة، فكلُّ مُحْدَثَةٍ[1] بدعـةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ[2]، وكل ضلالة في النار، طريقـة المعالجة كاملة، لا يحتاج كتاب الله عز وجل أن تعالج الموضوعات معالجة أعمق أو معالجة أوسـع أو أطـول أو أغنى، فمن قال ذلك فكلامه مرفوض.

إذًا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾، في هـذه الليلة المباركة التي عاد خيرُهـا على البشرية جمعـاء، في هذه الليلـة المباركة التي نـزل فيها القرآن (ذلـك المنهج والدسـتور) للبشرية جمعاء، في هذه الليلـة يُفْرَق (يبيَّن) كلُّ أمـر من الحكمـة أن يوضَّح، و كما تعلمـون: كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقـع، و إرادة الله متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾، بعـضُ النـاس لا يدركون هذا المعنـى، فيوازنون بين تشريـع البشر وتشريع خالق البـشر، ويوازنون بين قـولٍ قاله فلان وكلام خالق الكون! ليس هنـاك موازنة مطلقًا؛ هذا كلام رب العالمين خالق السـماوات والأرض.. هـذا كلام الخالق المصوِّر، ربِّ العالمين، الذي بيده مقاليد[3] السماوات والأرض، العليم، الحكيم، القوي.

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، أي: مُرسِلي القرآنِ في ليلة القدر.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، ليرحمنا، ليسـعدنا في الدنيا والآخرة، لا كما يقول بعض الجَهَلة.

---

١ – محدثة: أمر جديد لم يكن معروفًا في الكتاب والسنة.

٢ – ضلالة: انحراف.

٣ – مقاليد: مفاتيح الأمور.

لماذا صُنعت السيارة؟ صنعت لتسير، سيرُها علة[1] صُنعِها، كان من الممكن أن تشتري سيارة بلا عجلات وترفعها على أعمدة، ولكن هذه ليست سيارة، السيارة صنعت من أجل أن تسير، فلماذا فيها مكابح[2] إذًا؟! المِكْبَح يفعل فعلًا مناقضًا لحركتها، ومهمته أن يوقفها؛ فتشعر أنه ضروري لسلامة صاحبها، وأحيانًا السلامة ليست بالحركة بل بالوقوف، وأنتم تعلمون جميعًا أن إيقاف المركبة هو أسلم شيء أحيانًا في السيارة، فإذا وقفتْ نجا صاحبها من الهلاك، أما إذا بقيت تسير فربما هلك صاحبها. ولذلك فالمصائب – حسب الظاهر – مناقضة[3] للرحمة، هو سبحانه خلقنا ليرحمنا وليسعدنا، والفقر والمرض والقهر والسجن... هذه الآلام كلها مكابح، تقتضي رحمةُ الله عز وجل أن يفعل هذا لذلك؛ فبعض الأحيان تكون كل سعادتك على أثر مصيبة، كل السعادة بعد مشكلة، بعد ضائقة، وتشديد. فالسعادة قد تكون لفتة[4] إلى الله عز وجل، وهذه اللفتة تحتاج إلى صعق أحيانًا. القلب يقف أحيانًا فيستخدم أطباء القلب صعقة كهربائية، فبهذه الصعقة ينبض القلب، والصعقة مؤلمة جدًّا، ولكن هذا الألم الشديد دفع القلب إلى الحركة.

﴿رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦﴾، هو السميع لما تقول، العليم بما تنطوي[5] عليه نفسك، فلو لم تتكلم فإنه يعلم ما تخفي الصدور، ونحن البشر لا نعلم إلا إذا سمعنا أو رأينا، إذًا: هو السميع إنْ تكلمتَ، وهو العليم الذي يعلم ما تقول، و ما لا تقول، وما يخفى عنك، وما أعلنته

---

١ – علة: استدلال.

٢ – مكابح: فرامل.

٣ – مناقضة: متعارضة.

٤ – لفتة: عناية واهتمام، أو تنبيه لطيف.

٥ – تنطوي: تشتمل – تتضمن.

وما أسررته، قال سيدنا علي: علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

مهما بينت له:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ٧﴾، الفرق بين التَّقِيِّ والمُتَّقِي: المتقي يريد أن يكون تقيًّا، فهو غير التقي، فالتقي بلغ التقوى، لكن المتقي في طريقه إليها، والمُوقِنُ هو الذي يبغي اليقين، وفي الآية إشارة دقيقة؛ فأنت إذا أردت أن لا تعلم، لا تعلم، ولن تعلم إلا إذا أردت أن تعلم، ولهذا قال بعضهم: لم أجِدْ أشدَّ صمما[1] من الذي يريد أن لا يسمع، تجد أحيانًا إنسانًا لا يعنيه من كل هذا الموضوع شيء، فلو دعوته لسماع ومشاهدة فيديو أو قراءة مقالة أو حضور درس فلا الدرس ولا الفيديو ولا القراءة يعنيه، والدينُ خارج اهتمامه إجمالًا و تفصيلًا؛ ولذلك فمهما حاولت أن تبين و أن تفصل فهو لا يسمع، هو في وادٍ و أنت في وادٍ آخر.

أحيانًا يدخل الإنسان إلى محل تجاري، ويكون في المحل مئات الأنواع من البضائع، هو يبحث عن نوع واحد من البضاعة، فلو أن البائع عرض عليه بضائع أخرى يبين له صفاتها وسعرها الرخيص، فمهما تكلم البائع وبيَّن وفصَّل، سيجيبه هذا الإنسان بأن كل هذه الأمور لا تعنيه؛ هو يريد حاجة معينة. إذًا فيجب أن لا تبين لإنسان ما لا يريد.

البشَر لا يعلمون ولا يدركون عظمة الله تعالى ولا ربوبيته ولا قدرته ولا رحمته إلا إذا كانوا موقنين، أي: إلا إذا أرادوا اليقين؛ ولذلك فالإنسان مخير.. أبو لهب عاش مع النبي ﷺ، وأنت تتمنى أن تراه في المنام، أبو لهب كان معه، رآه رَأْيَ العين، لكنه لم يُرِدْ أن يؤمن.

١- صممًا: الصمم فقدان السمع.

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾﴾، كل جهد الإنسان ضائع إذا رفض الهدى، أما إذا أراد اليقين فإنَّ كل شيء يعلِّمه، وقد سمعت عن شيخ من شيوخ الأزهر (الشيخ الأنصاري) بدأ بطلب العلم في عمر الخمسين!! القراءة والكتابة وحِفْظ القرآن وطلَبُ العلم... كل ذلك بدأه في الخمسين، وما مات إلا شيخًا للأزهر! ولكن مَن علَّمه؟ نملة علمته، صعدت على الحائط أمامه ٤٨ مرة وتقع، وكان عمره آنذاك ٤٨ سنة، فقال: النملة أذكى مني؟ ٤٨ مرة صعدت ثم وقعت، وهي تعيد الكرَّةَ! فهذا رجلٌ اتَّعظ بالنملة وطلب العلم، وما مات إلا شيخًا للأزهر. وأنت إذا أردت الحقيقة فإنَّ كل شيء يعلِّمك، الكون والحوادث... في حياتنا آلاف المواعظ، فالحوادث التي نحياها، ونعيشها، ونراها، ونسمع بها هي مواعظ كبيرة جدًّا. والقرآن فيه كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ [١] وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، ما هذه الآية؟! لم ترم أنت، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، بيده الحياة وبيده الموت؛ والإنسان إذا أيقن أن الحياة بيد الله والموت بيد الله سعد واطمأن وارتاح وصار شجاعًا وترك النفاق.

شيئان خطيران: الحياة والرزق، والله عز وجل قطع أمر العباد عن موضوع الحياة والرزق، فالحياة بيد الله، والرزق بيد الله، ولا يستطيع مخلوق أن يمنح الحياة ولا أن يأخذها، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ...﴾ [فاطر: ٢]، أي: إن مفاتيح الخير ومغالقه كلها بيده فما يفتح الله للناس من خير فلا مغلق له، ولا ممسك له عنهم؛ لأن ذلك أمر الله تعالى وحده.

١- عندما رمى الرمل جهة المشركين.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، لا معبود بحقٍّ إلا هو، ولا رازق، ولا معطي، ولا مانع، ولا رافع، ولا خافض، ولا باسط، ولا قابض، ولا مُعِزَّ، ولا مُذِلَّ إلا الله، لأن كل شيء بيده، هذا معناها.

أنت قد تكون موظفًا بدائرة ما، فتعرف مَنْ أقوى واحد فيها، فتجد بأن كل الولاء[1] له، وقد يكون أقل من قمة الدائرة لسبب ما، قد يكون معاون المدير أقوى من المدير، فيكون الولاء كله له، شعرت بأنه الأقوى فسلكت سلوكًا طبيعيًا، فأنت تمنح ودك واهتمامك وكل وسائل التكريم لمن بيده الأمر في عملك. فإذا أيقنت أن الأمر كله بيد الله، وحده لا شريك له...

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾، فالله عز وجل ربُّ الصحابة الكرام، أعطاهم ونصرهم وأيَّدهم ومكَّنهم في الأرض وطمأنهم و استخلفهم[2]؟ أليس ربنا ربهم؟ هو هو، العلة[3] فينا، في تقصيرنا، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ[4] أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩[5]﴾ [مريم]

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكٖ يَلۡعَبُونَ ٩﴾، عقيدتهم مليئة بالشك، وسلوكهم لعبٌ، ويلعبون أي: يعملون بلا هدف، اللعب عمل بلا جدوى، فلهم صفتان: في عقولهم شك، وفي حركتهم لعب!

إذا غفل[6] الإنسان عن مهمته وعن هدفه الكبير تصبح حركته عشوائية...

١- الولاء: التأييد.

٢- استخلفهم: جعلهم خلفاءه.

٣- العلة: المشكلة.

٤- خلف: أي خلفاء أتوا بعد.

٥- يلقون غيًّا: قيل: الغي وادٍ في جهنم، وقيل: العذاب.

٦- غفل: سها أو ترك.

الآن عرفنا الهدف، فكيف نَسْعَدُ؟ لا تسعد إلا إذا جاءت الحركةُ مطابقةً للهدف، فمثلًا طالب على وشك أن يؤدي امتحانًا صعبًا بآخر مادة في سنة التخرج، واختصاصه مهمٌّ جدًّا ونادر، ويُعلَّقُ أهميةٌ كبرى على نجاحه، جلس في غرفة مظلمة تحت الدرج، وفتح الكتاب المقرر، وقرأ بشغف ونَهَم[1]، واستوعب وحفظ، وغلب على ظنه أنه سينجح في هذه المادة، تجد أعصابه مرتاحة؛ لأنه بالدراسة والمذاكرة والفهم والتحضير ومناقشة الفقرات في الكتاب تفوق فيها، إذا غلب على ظنه أنه سينجح، حقق هدفه فسَعِد.

هذا الطالب نفسه لو جاء أصدقاؤه وأخذوه قبل الامتحان بأسبوع إلى مكان جميل على البحر، أو في جبل أخضر، وأطعموه أطيب الطعام، وهو يحبهم حبًّا جمًّا، والمكان جميل وراحة وكلام لطيف وطعام طيب، فلماذا ينقبض[2]؟ لأن هذه الحركة، والنزهة، تتناقض مع الامتحان، ويحس بالانقباض.

النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا عرفت هدفها، وعرفت بأنها مخلوقة لمعرفة الله ولطاعته، فتجد المسلم قد تكون حياته خشنة، وقد يكون وقته كله ملآن بالمشاغل، لكنه سعيد؛ لأنه يشعر بأنه يتحرك ضمن هدف واضح.

هذه الدنيا هي دار ابتلاء[3]، وليست دار استواء[4]، ودار تكليف، لا دار تشريف، ودار عمل، لا دار جزاء...

التاجر في الموسم لا يعرف إن كان قد أكل أم لا من كثرة البيع

١- النهم: الإفراط في الرغبة.

٢- ينقبض: يحس بتوتر وضغط.

٣- ابتلاء: اختبار وامتحان.

٤- استواء: استقامة واعتدال.

والمـردود[1]، وهو يتمنى أن يكـون ثمة بيع كثير ولا يعود إلى بيته، وأحيانًا لا يكون بيع إطلاقًا، فهو مرتاح جسـديًّا، ولكنه متضايق لكسـاد بضاعته وكثرة التزاماته! فالإنسـان لا يسـعد إلا إذا جاءت حركته اليومية مطابقة لهدفـه، ولا يعرف صحـة الحركة إلا إذا عرف الهـدف الحقيقي، لذلك أن تعـرف لماذا خلقك الله عز وجل؟ ولماذا أنت في الدنيا؟ وماذا قبل الموت؟ ومـاذا بعد المـوت؟ وما الـبرزخ[2]؟ و ما الدار الآخرة؟ فهذه أساسـيات يجـب أن تعرفها قبل كل شيء، ولاشيء يعلـو عليها، ولديك أولويات في حياتـك.. أن تعرف من أنت، وتحـدد هدفك في هذه الحياة... هناك أناس يعيشـون على هامش الحياة[3]،فإنسان يسير يقول أنا مع الناس، إن أحسن النـاس أحسـنتُ، وإن أسـاؤوا أسـأت، وأكثرية الناس بهذا الشـكل، في الزي، والترتيب، في الأعراس...

كل حركة وكل سكنة ينبغي أن تكون مبنية على هدف مسبق نابع من عقيدتـك الصحيحة، ولذلك فإن حضور مجلس العلم ينمي في الإنسـان التصورات الصحيحة والمقتبسة[4] من منهج الله عز وجل.

الإنسـان الذي يجد بعد فـترة أن حركته صحيحة، سـلوكه منضبط، علاقاتـه كلهـا وفق منهـج الله عز وجل، هـذا يعطيه راحة نفسـية، فتجد المؤمن سـعيدًا، أسباب سعادته شعوره بأنه يسير بشكل صحيح، وكذلك شـعوره بأن في انتظاره عطاء كبيرًا، شعوره بأن الله عز وجل وعده بالجنة، وهذا الوعد ينسيه كلَّ متاعب الحياة.

قال لي أحدهم: أنت تقول إن المؤمن سعيد، ولكني أراه كبقية الناس!

١- المردود: الأرباح.

٢- البرزخ: الحاجز بين شيئين، والمراد هنا ما بين الموت والبعث.

٣- هامش الحياة: خارج سياق المجتمع وبمعزل عنه.

٤- المقتبسة: المأخوذة من.

فقلت له: إذا افترضنا أن شخصًا فقيرًا دَخْلُه أقل من مصروفه بكثير، ولكنه فجأة ورث مبلغًا كبيرًا جدًّا، وليتمكن من الحصول على ميراثه يحتاج إلى عامين من معاملات إدارية مختلفة، فلماذا يكون في هاتين السنتين أسعدَ الناس؟ علمًا بأنه لم يحصل على شيء! إنه سعيد لأنه موعود. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص]، سرُّ سعادة المؤمن أن الله وعده بالجنة، والدنيا مؤقتة، وهو راضٍ عن حاله فيها..

تجد الواحد منا يرتب ويرتب، لديه قلق عميق، فلو مات فجأة تجده انهار، وكل هذا التعب على الأرض أصبح لغيره، فلماذا يعلق الإنسانُ أملَه بالدنيا؟! أما إذا علق سعادته بالآخرة تجده يقبل كل مشكلة؛ لأنّ هدفه حاصل، ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾.

أرجو من الله عز وجل أن نكون في يقين، نتحرك وفق ما يرضي الله، إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها[1]، وشرفُ المؤمنِ عملُه مهما كان، وطاعته لله، وعِزُّهُ استغناؤه عن الناس.

ربنا سبحانه وتعالى يقول: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

اختلف العلماء في تفسيرها، لابد من مقدمة دقيقة تلقي ضوءًا على مضمون هذه الآيات.

من سُنَنِ ربنا سبحانه وتعالى في خلقه أنه ينقل الحق إلى الناس عن طريق الأنبياء المرسلين والدعاة الصادقين، هذا الحقُّ ينبغي أن يقف الإنسان منه موقف الاستجابة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ

١- سفاسفها: الأمور التافهة الحقيرة.

إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ...﴾ [الأنفال: ٢٤]، كل واحد منا ينبغي له إذا سمع مقالة تدعوه إلى الهدى، أو خطبة تدله على الخير، أو جلس في مجلس علم بيَّن له الطريق إلى الله، أو قرأ كتابًا من الكتب الموثوقة، أو سمع أو شاهد رسالة في أدوات التواصل الاجتماعي أو شاهد برنامجًا تلفزيونيًّا دعويًّا، أو أي أسلوب من أساليب إبلاغ الحق إلى الناس، يجب عليه أن يستجيب، وأن يعلم أن هذا من عند الله، لاسيما إذا جاءت الدعوة مؤيدة بالآيات الكريمة، ومفسرة وفق القواعد الصحيحة والسنة الصحيحة المطهرة، فإذا دعيت إلى الحق عليك أن تستجيب، فإن لم تستجب فحرصًا على مصلحتك ورحمة بك تأتي من الله المعالجةُ، والله عز وجل عنده أنواع منوعة وأساليب عديدة من المعالجة؛ لأنك في ملكه، أجهزتك كلها، وأعضاؤك، وحواسك، كل شيء تتمتع به بملك الله عز وجل، ومن حولك الزوجة والأولاد، ومن فوقك ومن تحتك الرزق، وكل شيء بيد الله تعالى...

حينما يُصِمُّ[1] الإنسانُ أذنيه عن سماع الحق، وحينما تأتيه الدعوة شفهية، سليمة وسلمية، ولطيفة، ولا يستجيب لها، يكون هو باختياره عرَّض نفسَه لمرحلة ثانية في الدعوة، هي الشدة. قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة].

كلام واضح كالشمس، في أكثر آيات القرآن الكريم، إن لم تستجب بالدعوة الكلامية، وبالدعوة البيانية، واللطيفة، والسلمية، فأنت بمحض[2] اختيارك نقلت نفسك إلى أسلوب آخر من أساليب الدعوة، هو الدعوة عن طريق الشدة، إن لم تستجب لله بلطائف الإحسان، ساقك الله إليه بسلاسل الامتحان، والموقف الأول أكرم وأعظم، وهذه الدنيا بين أيديكم، ما من قصة إلا وتؤكد هذه الحقيقة، ما من حدث إلا ويؤكدها.

١- يصم: يسمع ولا يهتدي بما سمع.

٢- محض: دون تأثير خارجي.

الآن لو أن الإنسان - لا سمح الله - دخل في المرحلة الثانية طواعية، فقد وضع نفسه فيها بإراداته واختياره، وأحيانًا يقول لك الطبيب: هذا المرض يعالج بالحبوب إذا اعتنيت بأخذ الدواء في الأوقات المحددة، فإن لم تعتن بالدواء وتفاقم[1] المرض فلابد من عملية جراحية، والأمر بيدك ساعتئذ، هنالك تخدير، وهناك غرفة عمليات، وفتح بطن، ومشكلات.. فالإنسان أحيانًا هو باختياره وبتقصيره وعدم استجابته لربه ينقل نفسه إلى أسلوب آخر في الدعوة، فيسوق الله عز وجل إليه من الشدائد والضيق لعله يعود أو يرجع، والموقف الكامل أن يتضرع[2]، ولو دخل إلى هذه المرحلة فعليه أن يقول يا رب تبت إليك، إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنؤوا فلانًا؛ فقد اصطلح مع الله.

أيضًا شيء رائع جدًّا أن الإنسان حينما يدخل - وهو في غفلة - في المرحلة الثانية عليه أن ينتبه ويتوب إلى الله وأن يقلع وأن يتضرع.

أحيانًا هذه الشدة يفسرها الإنسان تفسيرًا أرضيًّا لا سماويًّا، ويقول لك هذه هي الحياة: مد وجزر[3]، يوم لك ويوم عليك، ويقول لك عندما تأتيه المصيبة: أدارت لي الحياةُ ظهرَها: قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف].

هكذا الحياة، لمن لا يفسر الشدائدَ[4] تفسيرًا قرآنيًّا، كما أرادها الله أن تكون؛ لذلك قيل: مَن لم تُحدِث المصيبةُ في نفسه موعظةً[5] فمصيبته في نفسه أكبر.

١- تفاقم: تزايد.

٢- يتضرع: يتذلل ويدعو.

٣- مد وجزر: مصطلح يطلق على موقفين متعاكسين.

٤- الشدائد: المصائب والمآسي.

٥- موعظة: تذكيرًا.

بعد ذلك هنالك مرحلة ثالثة: مرحلة الإكرام الاستدراجي[1]، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ... ﴾ [الأعراف: ٩٥]، كان هنالك شدة انفرجت، فيقول الإنسان: كانت الأمور صعبةً فأصبحت ميسرة، ولكن لم يَعُدِ الناسُ إلى الله عز وجل، هذه مرحلة ثالثة، كان هناك ضيق وانفرج الضيق، كانت هناك أشياء صعبة المنال فأصبحت موفورة، والناس على ما هم عليه من فسق[2] و فجور[3].

هذا الملخص مُستَقَى[4] من آيات كثيرة، وهو من روح القرآن الكريم بأكثر من سورة وأكثر من موضع تؤكد هذه الحقائق.

من هو السعيد؟ الذي يصغي إلى الحق بأذنه قبل أن تأتي المعالجة التأديبية، وإذا فاته الإصغاء إلى الحق بأذنه وتأتي المعالجة التأديبية يتضرع إلى الله عز وجل، وإذا فاته التضرع ودخل في مرحلة ثالثة يشكر ويتوب، وفي سورة الدخان الله عز وجل يقول:

﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾، أي: (يا محمد)، والارتقاب لا يكون للخير، فارتقب لهم أن يأتي العلاج الإلهي...

وأنا أقول لكم هذا الكلام المستقى من هذه الآية، عندما يكون الإنسان منعمًا وهو غارق بالمعاصي، وهو ملتفت إلى الدنيا وقد أدار ظهره للدين، فمن رحمة الله به وحرصه عليه ورأفته به أن يسوق إليه شيئًا ليصحو، فهو غافل ومسترسل[5]، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل للناس ما يؤدبهم، وما يحملهم على التوبة، لكان معظم الناس من أهل النار.

١- الاستدراج: الأخذ بالتدرج شيئًا فشيئًا.

٢- فسق: خروج عن حدود الشرع.

٣- فجور: معاصي كبيرة.

٤- مستقى: مُستَمَد.

٥- مسترسل: ماضٍ في العمل غير آبِهٍ بالنتيجة.

والآن من هو الغبي؟ الغبي الذي يعيش لحظته، يأكل كما يشتهي، و يشرب كما يشتهي، و يذهب إلى أي مكان يريد، ويلتقي مع مَن يحب، ويفعل ما يحلو له، ولا يعبأ[1] بكل القيم والمبادئ، فهذا الإنسان هو النموذج المعاصر، يعيش لحظته، يعيش واقعه، فإذا جاءه الموت فجأة، أو جاءه المرض بغتة، فعندئذ يقول - كما قال الله تعالى -: ﴿... يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر].

والذي يندم هو الغبي، أما العاقل فلا يعمل عملًا يندم عليه، العاقل يرى الشيء قبل أن يصل إليه، ويعيش مستقبله، والأقل عقلًا يعيش واقعه، والغبي يعيش ماضيه.

هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن يُنكِر وقوعَ الموت، أيوجد إنسان خُلِّدَ[2]؟ محكوم علينا بالموت جميعًا، وهل هناك من حدث أشد واقعية وحتمية من الوقوع في الموت؟ فمن هو العاقل؟ هو الذي يُعِدُّ[3] له.

ولا يجب أن يدخل الإنسان في متاهات[4] التشاؤم؛ إذ لا علاقة إطلاقًا بين الموت والتشاؤم، فالموت حدث لا بدَّ منه، وقد يأتي بعد ساعة، وقد يأتي بعد خمسين عامًا، لكنه لا بد من أن يأتي، وإذا أتى لا يؤخر دقيقة واحدة، وما بعد الموت حياة أبدية سرمدية[5]، إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابُها، فمُنتهى العقل يقتضي أن تُعِدَّ لهذه الساعة، فلك أن تعمل، ولك أن تدرس، وأن تشتري بيتًا، وأن تؤسس مشروعًا، وأن

١- يعبأ: يبالي.
٢- خلد: بقي ودام (لايموت).
٣- يعد: يتهيأ ويستعد.
٤- متاهات: ضياع وضلالات.
٥- السرمدي: الدائم الذي لاينقطع.

تتزوج، وأن تنجب، وأن تزوج بناتك... وكل هذا مشروع، ولكن النقطة الدقيقة أن الله عز وجل نهى عن الهوى من غير هدى من الله.

هناك ميول أودعها الله فينا، إذا تحركت بها وفق منهج الله فلا شيء عليك، أما إذا تطلع إلى الحرام وخرج عن منهج الله فقد وقع في الإثم العظيم.

لو أن إنسانًا أراد أن يعمل وأن يكسب المال بطريق مشروع فلا شيء عليه، وإذا أنفقه في الوجه المشروع فلا شيء عليه. الشيء الذي حرمه الله أن تتبع الهوى من غير هدى من الله.

السعيد من استجاب لله إذا دُعي، والقرآن دعوة من الله، والحديث النبوي الشريف دعوة من الله، والعلماء الأمناء على هذه الرسالة، العاملون المخلصون الذين ينقلون لك ما في الكتاب والسنة بأمانة تامة دون إضافة شيء أو حذف شيء هؤلاء أيضًا ينوبون[1] عن النبي ﷺ في إبلاغ الناس، فالسعيد من استجاب لله ورسوله إذا دعاه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ[2]... ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فالإنسان إن لم يستجب فهو ميت ولو كان ضغط دمه ١٢٠/ ٨٠ ونبض قلبه ٧٠ وعمل تحليلًا طبيًّا وكان كله سليمًا، فهذه الحياة لا قيمة لها، إنها حياة الجسد، أما قلبه فَمَيِّت، فإن لم يستجب فهو ميت. مقبورون في شهواتهم، ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل:٢١].

إذا جلست مع إنسان ساعات طويلة يحدثك عن كل شيء إلا عن الله واليوم الآخر وهذا الدين وماذا بعد الموت، هذه الموضوعات لا يفقه[3]

١- ينوبون: يقومون مقام.

٢- يحييكم: يورثكم حياة أبدية في الآخرة.

٣- يفقه: يفهم.

عنها شيئًا، فإذا طرقت بعض هذه الموضوعات تململ واعتذر وقام من المجلس، هذا ميت ومُنْتِهٍ، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم].

لذلك إذا سمح الله للإنسان أن يتعرف إلى الحق في الدنيا، وعرف سر وجوده، وعرف عظمة هذا الإله العظيم، عرف ماذا بعد الموت، فله عمل متعلق بالآخرة، وله عمل لا يبتغي به أجرًا ولا سمعة ولا عطاءً ولا شكورًا... إطلاقًا، له عمل صالح، وهو زاده في الآخرة، فهو المؤمن، وهو السعيد وهو الفائز...

من هو الشقي؟ ومن هو التعيس؟ والخاسر؟ الذي يعمل للدنيا فقط، والدنيا تنتهي بثانية واحدة، وأحيانًا يموت المرء بلا سبب إطلاقًا.

فالموت قريب جدًّا، وحينما يأتي تخسر كل شيء، الذي جمعه الإنسان خلال سبعين عامًا يخسره بثانية واحدة، إلا المؤمن، فالموت عرس المؤمن؛ لأن كل هذه الحياة لهذه الساعة، تصور طالبًا درس ليلًا نهارًا، صباحا ومساء، حتى أتقن ما في الكتب كلها، فقَرْعُ جرسِ الامتحان يلقي في قلبه الفرح، هو ينتظر هذه الساعة بفارغ الصبر ليصب علمه كله داخل ورقة الامتحان وليأخذ الدرجة الأولى، يفتخر على زملائه بالفوز، فإذا تكلمت عن الموت من الناحية السلبية فلا تنسَ الناحية الإيجابية، والإنسان عندما يموت يلقى الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨[1]﴾ [آل عمران].

الإنسان إذا نقل اهتماماته وأهدافه للآخرة تهون[2] عليه الدنيا، والله

١- تحشرون: تجمعون.

٢- تهون: تسهل.

يرضيه منها بيت صغير ولقمة تمسك رَمَقَه[1]، ليس له طموح أكثر، الدنيا ماضية، دائمًا أبدًا تذكر: أن الله أكرم سيدنا محمدًا ﷺ أم أهانه حين زَوَى[2] عنه الدنيا؟ فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا. وهذه الدنيا أحقر من أن تكون عطاء لإنسان، وأحقر من أن يكون الحرمان منها عقابًا لإنسان؛ لأنها زائلة.

هذه الدنيا كلها هي سنوات محدودة، ومعظمها متاعب، فهل من المعقول من أجلها أن نضيع الآخرة؟!

﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ١٠﴾، أي: ارتقب - يا محمد - لهؤلاء الكفار يومًا أسود، يومًا تأديبيًّا، ومن باب رحمة الله، وأنَّ الله ربُّ العالمين، وأنه الله لا يدَعُ عباده مُعطَّلين من التربية، هذا الإنسان المنحرف لا بد من أن يسوق الله إليه شيئًا ما؛ فالصيدلية الإلهية فيها مليار دواء، وكل بلد له أساليب معينة، أحيانًا يذهب الإنسان إلى بلد يقول لك هنا لا يوجد مشكلة، عند الله في هذا البلد تأديب من نوع ثان، وكل مكان فيه أساليب لربنا عز وجل للتأديب.

تدبَّر الدعاءَ الذي قرأته مرةً وتأثرت به «اللهم، لا تجعلنا عبرة لأحد من خلقك»، فعلى الإنسان ألا يكون قصة لغيره، وعندما ينحرف يصبح قصة وحديثًا للناس؛ لذا قال تعالى:

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾، جعلهم الله قصةً ليُتَّعَظَ[3] بهم، الحياة مسرح، وفيها أماكن للمشاهدين، وخشبة مسرح، المستقيم له محل مع المشاهدين، يرى ويسمع، فإن لم يستقم جُرَّ إلى خشبة المسرح ليجري له حدث مؤلم يصبح قصة للناس.

١- الرمق: بقية الروح.

٢- زوى: صرف وأبعد.

٣- ليتعظ بهم: ليكونوا عبرة لغيرهم.

اسـمع، ما الذي يتناقله الناس؟ أحيانًا تجد قصة غريبة، أحيانًا انهيارًا لإنسان، وأحيانًا تأديبًا قاسيًا، والناس يتسلون بهذه القصص؛ فعلينا أن لا نجعل من أنفسنا قصة، فإذا سمع أحدُنا قصة واتعظ فلا مانع، ولكن عليه ألا يكون هو نفسه قصة.

﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾، مـن بعض تفسـيرات هـذه الآية: أن سـنوات القحـط[1] والمجاعة تجعل أمام العين غشـاوة[2]، وهذه ثابتة علميًّا، فشدة الجوع تُضعِف البصرَ.. أو إن السماء إذا شَحَّتْ[3] بالأمطـار يصبح الجـو مغبرًّا، والكل يرى أنه عنـد أول نزول المطر يصبح الجـو نقيًّا، كان مغبرًا بآخر الخريف، في الجفاف الجو كله يغبرُّ، فإذا جاءت الأمطـار فيُصبح الجو نقيًّا والأشـياء متألقـة، فربنا عز وجـل كَنَّى[4] عن جفاف السـماء وعن قحـط الأرض وعن انعدام الـرزق بالدخان، أو عن الغشاوة التي تكون على العين من شدة الجوع بالدخان، أي: تأديبًا.

وكلـما قَلَّ مـاء الحياء[5] قَلَّ ماء السـماء، والدليل قولـه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾[6] لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ ... ﴾ [الجن].

وأخبرنا اللهُ تعالى عن أهل مَدْيَن قال سـيدنا شعيب: إني أراكم بخير (الخير هو وفرة المواد ورخص الأسعار)، فلما قالوا: ربَّنا باعِدْ بين أسفارنا، فهـل من المعقول أن يدعو إنسـانٌ اللهَ أن يُتلِفَه و يدمِّـره؟! معنى باعِدْ بين أسـفارنا: إن كانت البلاد خضراءَ ففيها مياه وينابيع وأنهار، وفيها جنات، وتكون الأسـفار متقاربة، والإنسـان أحيانًا لا يحتـاج إلى حمل زاد إطلاقًا،

١- القحط: الجفاف.

٢- غشاوة: غطاء، حجاب.

٣- شحت: قلَّ ماؤها.

٤- كنى: قال ما يُستدَلُّ به على الأمر، ولم يصرِّح.

٥- ماء الحياء: مصطلح يدل على الأخلاق.

٦- غدقًا: كثيرًا.

والآن في بعض الأماكن التي تموج بالسكان كل مكان فيه حاجات ميسرة، ولا يوجد مُـدُن متمايزة، ويقول لك: إن العمران أصبح متصلًا، باعد بين أسـفارنا أي: يـا رب امْحَقْ[1] هـذه الزراعة وهذه البسـاتين، والكلام غير معقـول، إلا أن بعـض المفسرين قالـوا: حين يعصي الإنسـانُ ربَّه، وحينما يطغى[2]، وحينما يبغي[3] كأن لسـان حاله يقول: يـا رب، دمرني، يا رب، أفقـرني، وأتلف مالي. فإذا كان الكسـب حرامًا فكأنه يقـول: يا رب، أَقِمْ حكمك فِيَّ، أتلف مالي، نحن لدينا قاعدة، لسان المقال[4] ولسان الحال[5]، فعندما يعصي الإنسان فكأنه يقول يا رب أدبني، وأتلف مالي، ودمرني.

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾، بعضهـم قـال: الدخـان من أشراط السـاعة[6]، ومن أشراط السـاعة: الدجال، والدخان، وطلوع الشـمس من مغربهـا، ودابـة الأرض، ويأجوج ومأجـوج، فهذه أشراط السـاعة، ومنها الدخان، وهو من أثر نار جهنم، ومن شـأن العباد ساعتها أن يقولوا:

﴿رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾، فـلا يوجد إنسـان أثناء الشدة إلا ويقول: يا رب، عدت إليك؛ أنقذني، وبالمناسبة، هذا الالتجاء[7] عند الشدة يسـتوي فيه كل الناس، لا فضل لك فيه، حتى أعتى[8] الكفار يدعو ربه عند الشـدة ويقول: يا رب، أنقـذني؛ ولذلك فالبطولة أن تكون

١- امحق: أَهلِكْ.

٢- يطغى: يجاوز الحد.

٣- يبغي: يظلم ويفسد.

٤- لسان المقال: القول.

٥- لسان الحال: مادل على حالة الشيء من ظواهر.

٦- أشراط الساعة: مجموعة ظواهر وأحداث يدل وقوعُها على قرب وقوع يوم القيامة.

٧- الالتجاء: الاحتماء.

٨- أعتى: الأكثر جبروتًا وظلمًا.

في الرخاء ملتفتًا إلى الله عز وجل، وأنت في بحبوحة[1] وفي صحة، أما عند الشدة فكلهم يتضرع، ولكن قد لا ينفع هذا التضرع.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ﴾، الإنسان وهو تحت الشدة تكون استجابته أقل من وضعه في الرخاء. أما إذا كان في رخاء ويوجد نبي ومعه أدلة ومعه آيات وأشياء واضحة جدًّا، فهل يُعقل أن تكون استجابته عند الشدة وهو في ضائقة كاستجابته وهو في بحبوحة؟!

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴾، كأن الله سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان حين تصيبه الشدة قد تعمي بصره، وقد تُربكه[2] ولا يلتفت للذكر، والشدة قد تعطِّل فِكْره، وقد تسحقه...

﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾، لأن دعوة النبي تتعارض مع شهوات الكفار، ولذلك ماذا يفعلون؟ يلجؤون إلى رد هذه الدعوة عن طريق تكذيب النبي ﷺ، فيقولون – مثلًا –: هناك من علمه هذا الكلام، أو: هو مجنون!

نبي كريم على الله، معه وحي من السماء، ومعه كتاب، وأخلاقه رَضِيَّة[3]، وما عُرف عنه كذب قط، صادق أمين، وعفيف ذو نسب، هذا النبي العظيم يقال عنه هذا الكلام!

﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾، النقطة الدقيقة أنه إذا كان الإنسان مقيمًا على معصية وكان في ضائقة، جاءت الضائقة علاجًا له، وقد تنفرج الضائقة دون أن يقلع عن المعصية، فهذا انفراج مؤقت؛ فلا يفرح، فهذا استدراج!!

١- بحبوحة: سعة العيش وكثرة النعم.

٢- تربكه: توقعه في حيرة واضطراب.

٣- رضية: قنوعة راضية.

أنـا أعرف رجلًا أكل حقوقًا كثـيرة، له محل تجاري وأراضٍ، وأبنية له ولإخوته؛ حيث كان أكبرهم، فلما توفي أبوه اغتصب هذه الأموال، فجاءه مرض عضال ونقل إلى المستشـفى، صرح بـأن المحل الفلاني لإخوته عند شـعوره بأن أجله[1] قريب، ثم رد الله له صحته وشعر بأنه أصبح كما كان، فطلب الشريط المسجل فيه تصريحُه وكسره، وعاد إلى ما كان عليه، وعاش بعد هذا الحادث ثمانية أشهر، ثم جاءت الطامة الكبرى فمات!!

فمـن سـنن ربنا عز وجـل في خلقه أنـه أحيانًـا يرفع الشـدة مؤقتًا، فالإنسان إذا رفعت الشدة ولم يتب فلا يفرح فيها؛ فهذا رفع مؤقت.

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ [2] إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾، الإنسان إذا اعتدى على ما ليس له، اسـتخدم قوته وفهمه، واسـتغل ضعـف الطرف الآخر، وأخذ ما ليس له، والله ينتقم للمظلوم من الظالم.

إذا رأيـت اللهَ يتابـع نِعَمَه عليـك وأنت تعصيه فاحـذره، أما إذا كان الإنسان مستقيمًا على أمر الله والله عز وجل أكرمه، فهذا إكرام حقيقي، هذا نتيجة طاعته لله عز وجل، فالإنسان عليه أن يشكر، كل هذا الكلام مفاده: الإنسـان يفكر، عليه أن يقف من حين لآخر ليقوِّم[3] نفسـه، بيتي هل فيه مشـكلات؟ وعمـلي هل هناك علاقـات غير شرعيـة؟ لأن رأس الحكمة مخافـة الله، وخوفك من الله يتناسـب مع حجم إيمانك، كلـما ازداد إيمانك ازداد خوفـك، والعـالم هـو الذي يخاف، وحينـما يُنْقَل لكـم أقوالُ بعض الصحابـة الكرام عن شـدة خوفهم مـن الله فهـذا كلام حقيقي، صحابي كريم لا يمثل بكلامه، بل يخاف الله حقًّا، وهذا هو الخوف المقدس، وذاك هو القلق المقدس، والسعي المقدس لاكتساب مرضاة الله عز وجل.

١- أجله: موته.

٢- البطشة الكبرى: إهلاكهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بنار جهنم.

٣- يقوِّم: يقدِّر ويستعرض النتائج.

بعض الأحيان نـرى في الصحف والمجلات بعض الزلازل، تجد بأن زلـزالًا جعل بنـاءً بكامله ركامًا[1] في غمضة عـين، فالزلازل، والبراكين، والفيضانـات، والأعاصـير، و الحـروب الأهليـة الطاحنـة، والقهـر، والمجاعـات... هـذه إنـذارات، فـإذا اسـتمرأت البـلادُ الفسـادَ، وكان الكسـب الحرام أكثر من الحلال بكثير فهذا المجتمع تنتظره بطشـة من الله عـز وجـل، الأمثلة كثـيرة جـدًا، ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[2] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ[3] ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾، فتنَّا: أي امتحنَّـا وابتلينـا، والفتنة هي الامتحان، والرسـول الكريـم – هنا – هو سيدنا موسى عليه السلام.

﴿أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾﴾، أي: أيهـا العبادُ، أدوا إليَّ طاعتكـم وعهدكم الذي عاهدتم به ربَّكم، وقيـل معناها: يا فرعون، أعطني بني إسرائيل لأخرج بهم، وكلا التفسيرين صحيح.

فالنبي الحق والرسـول الحق أمين على وحي السـماء، ولا يستطيع أن يزيد كلمة ولا حرفًا، ولا أن يحذف، وهكذا الداعية الصادق، ينقل لك ما جاء في الكتاب والسنة دون زيادة أو نقصان.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾، العلـوُّ هو التكبُّر؟ الكِـبْرُ: هو بَطَرُ الحقِّ، وغَمْطُ الناس. بطـر الحق: ردُّ الحقِّ، (والمرد هنا هو الامتناع عن القبول)، أي: يتكبر على الله أن يطيعه، فقد لا يعجبه حكم الله

---

١ – ركامًا: أكوامًا منجرفة.

٢ – رغدًا : طيبًا واسعًا وكثيرًا.

٣– لباس الجوع : جوع خالط أذاه أجسامهم.

في موضوع ما، تقول له: الربا حرام، فيقول لك: نحن في حياة عصرية، فلابد من نماء الأموال، أنجمد المال؟ لابد من الربا؛ فهو لا يعبأ[1] بالحكم الشرعي، والآيةُ القرآنية في هذا الموضوع واضحة! أما غمط الناس: فهو احتقار الناس، فهذا الذي لا يعبأ بحكم الله يستعلي على الله تعالى؛ لذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ[2] مِنْ أَمْرِهِمْ ...﴾ [الأحزاب: ٣٦].. لا يوجد خيار، فإذا كنت مؤمنًا حقًّا ورأيت أمر الله في الكتاب والسنة، انتهى الأمر، وعليك باتباع هذا الأمر.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ[3] بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾، فالله تعالى يعصم الأنبياء من الناس، يعصم النبيَّ من أن يُقتل قبل أداء الرسالة؛ لأنه إن قتل قبل أداء الرسالة انتهت الدعوة بموته، لذلك فالله يعصمه، وأما إذا أدى الرسالة فيمكن بعدها أن يخضع للسنن الكونية، وقد قُتل بعض الأنبياء، وذلك لحكمة لله تعالى.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾، هذه الآية تذكرنا بقوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى[4] جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾[5] إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ[6] إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، قال تعالى في سور أخرى:

١- يعبأ: يبالي ويكترث.
٢- الخيرة: الاختيار.
٣- عذت: التجأت وتحصنت.
٤- كيدوني: احتالوا لإلحاق الضرر بي.
٥- تنظرون: تؤخرون.
٦- ناصيتها: مقدَّم رأسها، يُصرِّفها الله كما يشاء.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق]، وقال: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فأوحى ربُّنا عز وجل إلى سيدنا موسى:

﴿فَأَسْرِ[1] بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾، سيدنا موسى وبنو إسرائيل ضِعاف مُستَضْعَفون[2]، وفرعون وجبروته وقوته وجيشه وأتباعه، لا يوجد تناسُب أبدًا، فأُمِرَ سيدنا موسى من قِبَل الله عز وجل أن يتجه جهة البحر.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾، لما ضَرب سيدُنا موسى بعصاه البحرَ وأصبح طريقًا يَبَسًا، سار فيه، فلما خرج منه وخاف أن يتبعه فرعون في هذا الطريق، هَمَّ أن يضرب البحر مرة ثانية ليعود كما كان، ولكن الله تعالى أمره أن يترك البحر رهوًا، أي: ساكنًا كما هو؛ لأن فرعون سوف يتبعه من هذا الطريق، وفي منتصف البحر سيعيد الله البحر بحرًا، ويغرقهم أجمعين.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾، الإنسان حين يعصي الله يَقْصِمُه[3] الله قصماً، فيترك أموالاً وبساتين وبيوتًا وأراضي وزوجة ومتاعًا، والإنسان كلما نما وكلما كبر يتنامى استمتاعه بالحياة، فإذا قصمه الله قصمًا ترك هذا كله فجأة. و﴿كَمْ تَرَكُوا﴾، هذه الآية دقيقة جدًّا، (كم) تكثيرية!

لقد أورث الله تعالى نِعَمَ فرعون وقومِه لأقوام آخرين...

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾[4]﴾، لم تحزن

١- أسر: امشِ ليلًا.

٢- مستضعفون: مُتَسَلَّطٌ عليهم.

٣- يقصمه: يحطمه.

٤- منظرين: مؤخَّرين لعقوبة حَلَّتْ عليهم.

السماوات والأرض عليهم، المؤمن مبارك، والكافر مؤذٍ، مؤذٍ بكل شيء، فإذا مات العبد الفاجر استراح منه كلُّ شيء، فما بكت عليهم السماء، أما المؤمن فأينما حلَّ يصلي، ويسجد، ويدعو، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويرحم الناس، فأينما سار فله آثار طيبة، وكيفما تكلم له آثار طيبة، وأينما حلَّ له آثار طيبة، فبيته مكان للدعوة، ومركبته في خدمة الحق، إنه ينفق ماله في سبيل الله، ومَن حوله يحبونه لشدة عطفه عليهم ورحمته بهم، فليجهد الإنسان أنْ إذا توفاه الله يكون له أثر طيب.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾، كان فرعون يعذب بني إسرائيل عذابًا مهينًا، فنجاهم الله تعالى من هذا العذاب المهين.

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾، كان فرعون مستعليًا[1]، لا ظالمًا فقط، لقد أسرف في الظلم، بلغه أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على حكمه؛ وعوضًا عن أن يتوب أمر بذبح كل أولاد بني إسرائيل، والقابلة (التى تولِّد النساء) التي لا تبلغ رجالَ فرعون عن مولود ذكر، تُقتَل مكان المولود، فالقابلة تبلِّغ، فيأتي الرجال لذبح المولود، وهذا مبالغة في الظلم.

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ[2] عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾[3]﴾، أي: اخترنا بني إسرائيل على علم منا بهم على عالمي أهل زمانهم يومئذ، أي: زمان سيدنا موسى عليه السلام، ثم أنجاهم الله من عدوهم (فرعون)، ثم قطع بهم البحر، وظلل عليهم الغمامَ، وأنزل عليهم المَنَّ والسَّلوى، أي: ابتلاهم ربهم بالبلاء والشدة للعبرة.

١- مستعليًا: مستكبرًا جبارًا.

٢- على علم: على علم من الله بهم.

٣- بلاء مبين: البلاء بالرخاء والشدة.

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى سيدنا محمد و يقول: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: إن هؤلاء المشركين من قومك - يا محمد - يقولون: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾[1] فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾، هذا قول الكفار كلهم، لا يوجد غير الدنيا، و موتة واحدة، نحيا ونموت، فالجنة هنا والنار هنا، والذي معه مال في الجنة، والمحروم من المال في جهنم، فهذه مقولة الناس الجاهلين.

﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، المعنى أنَّ قوم تُبَّع كانوا أقوى منكم، وكانوا أشد منكم، وملكوا أطراف الأرض، ومع ذلك أهلكهم الله عز وجل؛ لأنهم فسقوا وفجروا، فمَنْ أنتم؟ هذا كلام دقيق، لو أردنا أن نسحبه على حياتنا المعاصرة، فإن كنت قويًّا فقد أهلك الله مَن هو أقوى منك، وإن كنت غنيًّا فقد دمَّر اللهُ مالَ مَن هو أغنى منك، وإن كنت ذكيًّا فقد وقع الذكي في شر عمله، فالإنسان إذا توهم[2] أنه على شيء فقد أشرك؛ لأن هذا الشيء لو أراد الله أن يَمْحَقَهُ[3] محقه في طرفة عين، وليس لك أيُّ حَولٍ (قوة) ولا أيُّ طَوْلٍ (أي: لا فضل و لا غنى ولا قدرة)، وهذا المعنى هو معنى العبودية لله عز وجل، إذا كنت على شيء فمِن فضل الله، وإذا كنت على جانب من القوة فمِن كرم الله، إن كنت على جانب من اليسر فمن إكرام الله لك.

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، الإنسان متى يطغى؟ حين يرى نفسه قد استغنى عن عبادة الله وطاعته؛ فيظن أن القوة في المال، وأن القوة في العلم، وأن القوة في السلطان وحدها، وهذه من شأنها من دون إيمان أن تحمل صاحبها على العدوان، إن القوة من دون

١- منشرين: عائدين أحياء يوم القيامة.

٢- توهم: تخيَّل.

٣- يمحقه: يهلكه ويستأصله.

إيمان خطر؛ لأنها تهلك[١] صاحبَها، كيف تهلكه؟ توقعه في الغرور، والقوة – أحيانًا – تحجب[٢] عن الحقائق، والمال يحجب، وكذلك التفوق العلمي في العلوم المادية يحجب، فهناك ثلاث قوى: قوة العلم، وقوة المال، وقوة السلطان، هذه من دون إيمان من شأنها أن تحمل صاحبها على الطغيان؛ ولذلك فالإنسان أحيانًا بجهده قد يصل إلى قمة النجاح، ولكن بغفلة يسيرة يقع في الشرك، فيَعْتَدُّ بنفسه، ويقول: إنما أُوتِيتُه على علم عندي، فبلحظة واحدة وبغفلة يسيرة يصبح في الحضيض[٣]، فما الذي أهلكه؟ شِرْكُهْ، وإذا قال: (أنا) فقد هوى[٤]، ومنه قول إبليس: أنا خير منه؛ خلقتني من نار وخَلَقْتَهُ من طين، فقد هلك، وقول قارون: إنما أوتيته على علم عندي؛ فخسفنا[٥] به وبداره الأرض.

انتبه! إنَّ الله عز وجل يعطي ويمتحن، فإن أعطاك شيئًا فلا تنسَ أن الله هو الذي تفضل عليك به، وكان فضل الله عليك عظيمًا، وإذا ملكت النعمة فلا تنسَ المُنعِم، وإذا ملكت الذكاء فلا تنسَ أن الله سبحانه وتعالى بقطرة دم لا يزيد حجمها عن حجم رأس دبوس قادر على أن يُفقِدك ذاكرتك، فيختل عقلك، ويتوسط أهلك كي يودعوك في مستشفى الأمراض العقلية... أريد من هذه الأمثلة أن أبين بأن الإنسان إذا أعطاه الله شيئًا كنعمة القوة فعليه ألَّا ينسى مَن أنعم عليه بهذه القوة، وهو في نعمة المال وفي نعمة الصحة، ألَّا ينسى أن الله سمح له بذلك، فإذا بقي في النعمة ونسي المنعِم فقد أشرك، وإذا أشرك يؤدَّب، فكيف يؤدب؟ يُريه اللهُ النعمةَ بفَقْدها لا بدوامها، «فبالشكر تدوم النعم».

١- تهلك: تدمر وتحطم.

٢- تحجب: تستر.

٣- الحضيض: الأسفل.

٤- هوى: سقط إلى أسفل.

٥- خسفنا : غاب في الأرض.

كان عليه الصلاة والسلام تَعْظُم[1] عنده النعمةُ مهما دَقَّتْ[2]، وكم منا مَن يدخل إلى بيته، وعنده مأوى، وكم ممن لا مأوى له، فلو ذهبت إلى شرقي آسيا فملايين الأسر تنام على قارعة الطريق، هو وزوجته وأولاده، أو في القوارب، إذا كان عندك مأوى، ووجدت ثمن الطعام، فهذه نعمة كبرى.

سيدنا عمر استقبل رسول عامله[3] على أذربيجان، فلما استضافه في بيته قال لزوجته: يا أم كلثوم، ما عندك من طعام؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبز وملح، فقال سيدنا عمر (عملاق الإسلام وخليفة المسلمين): هاتِه لنا، أكل مع ضيفه خبزًا وملحًا، ولما انتهى قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا!

أنت حينما تأكل، كم نوعًا من الطعام؟ تأكل ألوانًا مختلفة في بعض الولائم، فهل قلت الحمد لله من أعماق أعماقك للذي أطعمنا فأشبعنا وسقانا فأروانا؟ شكر النعمة فيه سعادة، حينما تعرف قدر المنعم.

والله عز وجل يحبك أن تشكره، وألا تنسى فضله، وألا تتعامى[4] عن كرمه، وكان فضل الله عليك عظيمًا، وأكبر فضل هو أنه هداك إليه، عرَّفك بذاته، علِم فيك الخيرَ فأسمعك الحقَّ، وهذا فضل كبير، لذلك فإن الإنسان لو وصل إلى شيء من القوة، ولم يشكر الله عليها، ثم استعملها في غير محلها وبطش بها، فإن الله قد دمَّر من هو أقوى منه، كلنا يعلم ويرى.. أحيانًا مدينة من أرقى المدن، مدينة سياحية جميلة جدًّا، زلزال في ثلاث ثوانٍ جعلها قاعًا صفصفًا[5]، فالله كبير.

١- تعظم: يراها كبيرة.

٢- دقت: كانت صغيرة.

٣- عامله: واليه (الحاكم الذي ولَّاه على تلك البلدة).

٤- تتعامى: تتجاهلها لأمر في نفسك.

٥- قاعًا صفصفًا: أرضًا ملساء مستوية.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾، قوم تبع هم قوم سبأ، و«تبع» كان ملكهم، ملاحظة: (والتبابعة ملوك اليمن، كما أن القياصرة ملوك الروم، والأكاسرة ملوك الفرس، كان من هؤلاء الملوك التبابعة ملكٌ صالحٌ أراد أن يغزو الجزيرة العربية، فوَصل إلى المدينة، وأعلمه بعض العلماء أن هذه المدينة مكان هجرة رسول، وسيأتي بعد حين، فامتنع عن غزوها، فلما وصل إلى الكعبة، أخبروه أيضًا أن هذه الكعبة بيت الله، فكساها[1] وأكرمها، والنبي الكريم كان يثني عليه؛ لأن الأخبار تواترت[2] بأنه كان صالحًا، وبعض الروايات تذكر أنه كان نبيًّا - هذا ليس ما تقصده هذه الآية).

أما قوم «تبع» الذين ذكرتهم هذه الآية فقد دمَّرهم اللهُ بسدٍّ مأرب؛ لأنهم فسقوا؛ قالوا: ربنا باعِدْ بين أسفارنا، والإنسان حين يعصي فلسان حاله يقول: يا رب، دمِّرني، الآية حيَّرت العلماء، فمعقول أنَّ إنسانًا يدعو على نفسه، فبلادهم جنات، وبساتين، وأنهار، وخيرات، وَفْرَةُ الموادِّ ورُخص الأسعارِ، كانت البلاد متصلة، لشدة الرخاء والعمران والبساتين والماء والأنهار والينابيع، فقالوا: ربنا باعد بين أسفارنا، يعني -كما فسر بعض العلماء كأن لسان حالهم يقول-: يا رب، دمرنا، اجعل أرضنا قاحلة[3]، ودمِّر هذه البساتين، وجفِّف هذه الأنهار، إنَّه كلام غير معقول! فبعض العلماء قال: الذي يعصي الله لسان حاله يقول: يا رب دمرني، والبيت إذا كان فيه معصية كأنك تقول: يا رب دمر هذه الأسرة، وامحق (أهلكه) هذا الرزق، والدكان إذا كان فيها بيع طيب وصار فيها معاصٍ، وصار فيها غشٌّ، وصار فيها كذب... فكأن صاحب هذه الدكان يقول: يا رب، امحق هذا الرزق، ويا رب دمرني، الإنسان في بيته ومع زوجته وأولاده وبعمله عندما يعصي على علم - أي: يعرف أنه يعصي -

---

١- كساها: ألبسها ثوبًا.

٢- تواترت: تتابعت وتوالت.

٣- قاحلة: يابسة لا نبات فيها.

فكأن لسان حاله يقول: يا رب، دمرني، وامحق هذا الرزق، و أنشب خلافًا بينـي وبين زوجتي، وحينما يتطلع الإنسـان إلى غـير زوجته ويطلق بصره في الحرام فكأنه يقول: يا رب، دمر سـعادتي الزوجية، فتكون المشـكلات، ويدخل الشـيطان؛ فيحلف بالطلاق لأتفه سـبب، ويشرد الأولاد، ولقد كان بيتًـا عامرًا بذكر الله، فصـار خربًا من المعصية؛ فالمعـاصي تدمِّر، هذا لسان حال العاصي شاء أم أبى..

ولذلـك كلما ازددت خوفًا مـن الله فهذا يدل على كِبَر عقلك، ورأس الحكمة مخافة الله، لا تبتعد كثيرًا، بل اسـمع الأخبارَ، تَرَ كيف أن الله يدمر مدنًا، وأقوامًا، ويمحق أممًا، وتجارات، هذه الأخبار لو سمعتها فعليك أن تسـمعها بأُذن موحِّـدة، وعليك أن ترى يد الله تعمـل في الخفاء[1]، يد الله فـوق أيديهم، وعليك أن ترى أن الله في السـماء إلـه وفي الأرض هو نفس الإله، وما لكم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدًا، وأن الله خالق كلِّ شيء وهـو على كل شيء وكيـل، وأن الله وراء كل شيء، وأنه بيده كل شيء، وأنه لا راد لمشيئته، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، افهم هذا، تَرَ تفسيرًا رائعًا.

يمكن أن تشـاهد مثلًا حربًا أهلية في بلد، تسـمع أخبارًا خلال عشر سـنوات عن التدمير وعـن القتل، يُقتل مئـات الألوف، وتُدمَّـر الأبنية، ويمكـن أن تقـرأ مئة تفسـير لهذه الحـرب، ولكن لا تنس تفسـير الله لها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا[2] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل].

لا تغِـبْ عن تفسـير الله عز وجـل، ولا تغِـبْ عن القـرآن الكريم؛

١- الخفاء: بعيدًا عن مرأى الأعين.

٢- رغدًا: طيبًا واسعًا.

فهـو يعطيك تفسـير أيِّ شيء، حتى لو رأيت أمة متقدمـة تتحكم بمعظم الشـعوب رخاء، وبيوتًا رخيصة، مواصلات، وكل شيء فيها جميل... فلا تَغْـتَرَّ بهـؤلاء، قـال تعـالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ [1] تَقَلُّبُ [2] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ [3] قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾[4]﴾ [آل عمـران]، ولا تنـسَ القرآنَ الكريم؛ لأن الله تعالى قـال: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ [5] أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ...﴾ [الأنعـام: ٤٤]، أي: لَمَّـا نسـوا ما دعاهـم الله إليه وردُّوه، بـدَّلَ الله لهم مكانَ البأساء الرخاءَ والسَّعَةَ بالعيش والسلامة؛ استدراجًا لهم؛ حتى إذا فرحوا بهذا فاجأهم اللهُ بسَـلْبِ الخيرات، وأتاهم العذاب فجأة وهم آمنون. قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ [6] فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم].

فهذا القرآن الكريم حين تقرؤه يطمئن قلبك، وترتاح نفسـك لكلام خالـق الكون، يقول لك: يا عبدي، افعل كذا ولاتفعل كذا، فكن دائمًا مع التفسير الديني للأشياء.

هم فسـقوا وفجـروا، ومن لوازم الفسـق: العـدوان، عندما تتحكم بالإنسـان شهوتُهُ لا بدَّ أن يعتدي على حقوق الآخرين، ولو ضبط شهوته وفق منهج الله، لم يكن معتديًا، ولو ضبط شـهوته في حبه للمال أو للنسـاء أو للعلو في الأرض وفق منهج الله فإنه لا يعتدي. ثم يقول الله عز وجل:

١- يغرنك: يخدَعَنَّك.

٢- تقلب: تحول من حالة إلى أخرى.

٣- متاع: كل ما يُتمتَّع به ويُرغَب في اقتنائه.

٤- بئس المهاد: ساء الفراش، وهو - هنا - جهنم.

٥- أوتوا: ما أُنعِمَ به عليهم.

٦- تشخص فيه الأبصار: تعلق أبصارهم في جهة واحدة، وهذا يوم القيامة.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾، ما هو اللعب؟ هو العبث، أو عمل لا طائل منه، أى ليس له ثمرة إطلاقًا، فلعب الطاولة، ما نتيجته؟ هل تحررت القدس؟ أو أسست مشروعًا؟ أو أخذت شهادة عليا؟ أو ساهمت في حل مشكلة ببلدك؟... وربنا عزوجل ينفي أن يخلق الأرض والسماوات لاعبًا، إله عظيم لا يعبث ولا يلعب، كمال الخلق يدل على كمال التصرُّف.

هناك آية أخرى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ...﴾ [ص: ٢٧]، فربنا عز وجل نفى عن أن يكون خلق السماوات والأرض باطلًا، فإذا عرفنا ما الباطل وما يقابله، عرفنا أن الله عز وجل خلق السماوات والأرض بالحق، والباطل الشيء الزائل، فمن الممكن أن ننشئ جناحًا في المعرض من قماش من أجل ٢٠ يومًا فقط، أما إذا أردنا أن نبني بناء يبقى مئات السنين، نبنيه من الحجر، فالباطل الشيء الزائل، أما الحق فالشيء الدائم الأبدي السرمدي، فاللعب الشيء العابث، أما الحق فهو الشيء الجادُّ، فاجمع اللعب والباطل وما يقابله من الدوام والجدية، تجد الحق أن تعمل عملًا نبيلًا ثابتًا، فيه الثبات والسمو[1]، والاستمرار والعظمة.

ربنا عز وجل قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ...﴾ [المؤمنون: ١١٥]، أي: لعبًا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾[2] [القيامة].

حياةٌ دنيا تنتهي بالموت، وانتهى كل شيء!! وهذا ظن الجاهل، فالإنسان مخلوق ليُحاسَب، جاء الله بك إلى الدنيا لتعرفه وتعرف منهجه وتطبِّقه، وسوف تحاسب عن كل حركة وسَكَنَةٍ[3]، وسوف تلقى جزاء العمل في جنة يدوم نعيمها أو في نار لا ينفد عذابها.

١- السمو: العلوُّ والرفعة.

٢- سدىً: مُهمَلًا لا يكلَّف ولا يجازى.

٣- سكنة: السكون عكس الحركة.

فالـذي يؤمن بالعبثيـة[1] والـزوال[2]، وأن الموت نهايـة الحياة، وأن لاشيء بعـد الموت، فهو كافر، يقول عنهم الله عزوجل: ﴿...ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ [ص: ٢٧]، بأوسع معاني هذه الكلمة، لكن الموت بداية الحياة.

يقول الله تعـالى بلسـانهم: ﴿... يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ[3] أَحَدٞ ٢٦﴾ [الفجر].

الحيـاة الآخرة هي الحيوان، أي: هي الحياة الحقيقية الدائمة، لو كانوا يعلمـون، وهي الحياة الحقيقية التي خلقتَ مـن أجلها، إنها حياة لا يوجد فيهـا قلـق ولا حر ولا بـرد ولا هرم ولا مـرض، وفي الحديـث القدسي: «أَعْـدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَـمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَـلَى قَلْـبِ بَشَرٍ» [متفـق عليه عـن أبي هريرة]، وقال تعـالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين]، وقـال: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾ [الصافـات]، وقـال: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ [يونس].

المؤمن الحق لا يفـرح إلا بعطاء الله، العطاء الأبدي السرمدي[4]، أما العطاء الدنيوي فهو زائل، ولا يسمى عطاءً حقيقةً.

فيكـون معنى الآية: خلقنا السـماوات والأرض بالحـق لهدف كبير، وهو إسعاد الخلق، فبالكون تتعرف إلى الله، وإن عرفت الله وعرفت منهجه واتبعت منهجه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة، هذا ملخص الملخص.

﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾،

١- العبثية: فلسفة العبث في وجود البشر في الكون.

٢- الزوال: النهاية.

٣- لا يوثق وثاقه أحد: يوثِّقُ اللهُ تعالى يد الكافر في الآخرة وثاقًا شديدًا.

٤- السرمدي: الدائم الذي لاينقطع.

قال أحدهم:

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت!

ولقد أبصرت أمامي طريقًا فمشيت

أين كنت؟ أين صرت؟ أين أبصرت طريقي؟ لست أدري!

كيف لا تدري والقرآن بين يديك؟ هذا حمق، وتردد كلمة لا أدري والله عز وجل يبين لك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، الآية واضحة كالشمس، وفي الآخرة يقول البعض:

﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر]!

الله يميز بين الحياة الدنيا والآخرة: الأولى دار عمل وتكليف، والثانية دار استقرار وتشريف ونعيم مقيم، الأولى حياة نظامها الكسب[1] والسعي وبذل الجهد والكدح[2].

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق]، وأما هناك فالنظام: ﴿لَهُم فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ...﴾ [الفرقان: ١٦].

فالمؤمن في الجنة يختار فقط، ولمجرد أن يقع في ذهنه طلب يراه أمامه كما يشاء! سبحان الله المنعم...

أما الذين لايعلمون ولا يريدون أن يعلموا فالله تعالى يقول لهم:

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ[3] مِيقَاتُهُمْ[4] أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾، كم فرقة؟ وكم اتجاه؟ وكم مبدأ؟ وكم جماعة في الأرض الآن؟ مئات الجماعات، كل

١- الكسب: طلب الرزق والدخل المادي.

٢- الكدح: السعي في العمل بجد واجتهاد.

٣- يوم الفصل: يوم القيامة والحساب.

٤- ميقاتهم: موعدهم.

جماعـة لها مبدأ ولديهـا أدلة، إذًا مَنْ على الحق؟ أمرٌ يحير، المسـلمون مئات الفِـرَق، والنصـارى آلاف الفِرَق وكذلك اليهـود، بالإضافة إلى البوذيين والسـيخ والهندوس وديانات إفريقيا وأمريـكا اللاتينية، كم دينًا وشريعة وعقيـدة يوجد في الأرض؟ وكم اتجاهًا وكم فئة وكم حزب؟ فمن يا ترى مِن هؤلاء على حق؟ يجيب تعالى:

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾، كلٌّ يدَّعـي أنـه على حق، فمَن هو صاحب الحق؟ في يوم الفصل يفرز الله كلَّ الخَلق، هذا على حق، والآخر على باطل.

فلنفكـر قليلًا، في الدنيـا مقاييس[1]، ولندخـل الآن في هذا المقياس، قال الفيلسوف المادي ديكارت: «أنا أفكر؛ فأنا موجود»، لدينا شيء ثابت هـو الكون، فالشـمس ثابتة، والقمـر والليل والنهـار والأرض، الجبال، والبحار، والنباتات، والأسـماك، والأطيار، وجسمك، وقلبك، ورئتاك، فأنت أمـام آلاف الآيات الدالة على عظمـة الله، يوجد لهذا الكون خالق، مُـرَبٍّ، ومسـير، وموجود، وواحد كامـل، وكل ما في الكـون يدل عليه، يدل عـلى وجوده، وعلى كماله، وعـلى وحدانيته، هذه ثابتة، ولا يسـتطيع إنسان - كائنًا مَن كان - أن ينقض هذه الحقيقة، الصنعة تدل على الصانع، والتسيير يدل على المُسَيِّر، والخلق على الخالق، والتربية على المربي، والنعمة على المنعِم، فهذا هو الخالق العظيم، وكمال الخلق من لوازمه كمال التصرُّف، أيُعقَـل لإله عظيم خلقَ فسـوَّى وقدَّر فهدى أنْ يدع عبـادَه بلا توجيه[2]، ولا منهـج، ولا نظام، ولا دليل؟! أو أن ينسـاهم أو يدعَهُم هَمَلًا؟! (أي: مهملين بلا رعاية ولا عناية).

وزارة المواصـلات تشـق طريقًـا، ثـم تضـع إشـارات تحذيريـة[3]

---

١ - مقاييس: معايير ومقادير ومبادئ.

٢- توجيه: إرشادات ونصح وبيان.

٣- إشارات تحذيرية: علامات للاحتراس.

للمنعطفات ولكل ما يجب تنبيهًا السائق، لوحات مختلفة وإلا تكثر الحوادث، والله عز وجل – ولله المثَل الأعلى – خلق الكونَ ونوَّره بالوحي، أرسل كتابًا (القرآن)، وهذا الكتاب لا يَقِلُّ أهميَّةً عن الكون، الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، فالكون في كفة والقرآن في كفة أخرى، منهج وهذا المنهج من عند الله، وما الدليل على أن هذا الكتاب هو من عند الله؟ هنالك دليل قطعي: إعجازه؛ ففيه إعجاز إخباري لغيب الماضي، ولغيب الحاضر، والمستقبل، وفيه إعجاز علمي، وإعجاز تشريعي، وبياني، وتربوي، فإذا كان الأمر يهمك هناك مليون دليل على أن هذا القرآن هو كلام الله، ومستحيل لمخلوق مهما علا أن يأتي بمثله، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، هذا شيء ثابت آخر.

والذي جاء بهذا الكتاب هو رسول قطعًا؛ فما دام هذا معجزًا فالذي جاء به رسول من عند الله تعالى خالق الكون، فأصبح لديك ثلاثة ثوابت: فالكون ثابت، والقرآن ثابت، والنبي وكلامه – المُسْنَد – ثابت، وأصبح لديك قرآن وسنة، فأي شيء تسمعه تعرضه على القرآن والسنة، فإن وافق الكتاب والسنة فهو صحيح، وإذا كان فيه تعنت[1] وفيه مكابرة[2]، فالإنسان يتحرك بعض الأحيان لا وفق قناعاته، بل وفق مصالحه، فيزيِّن فكرةً لغاية في نفسه، ويرفض فكرةً لغاية أخرى، هذا الرفض لا قيمة له، والقبول لا قيمة له؛ لأنه قبول مصلحي[3] ورفض مصلحي.

وبكل قضية تسمع أحيانًا فكرة، وتقرأ مقالة في مجلة، وتسمع محاضرة، اِعْرِضْ (قارن) هذا على كتاب الله، فأهم عمل تفعله وقبل كل شيء، وقبل أن تأكل أن تفهم كلام الله؛ لأنه هو المقياس، هو الكتاب الذي لا يأتيه

---

١ – تعنت: تعصب وعناد.

٢ – مكابرة: معاندة.

٣– مصلحي: له منفعة خاصة.

الباطـل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الكتاب الذي فيه النجاة؛ فلذلك عندمـا يجلس الإنسـان في مجلس علـم ليفهم كلام الله يقـوم بأخطر عمل في حياتـه، ولا شيء يعلو على هـذا العمل إطلاقًا، أنـت الآن تتعلم كلام الله، فهـو منهجك، ومقياسـك، فلو أردت الحقيقة، لـو أردتها صادقًا، لو أردتها مخلصًا، تعرفها قبل يوم الفصل، لكن لو ركب الإنسـان رأسه وجر الحقائـق إلى صالحه ولعب بالأفـكار وزَوَّر[1] تحويرًا لمصلحة يريدها، هذا يقول له حسـابه يوم الفصل حيـث ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

الحياة الدنيا مبنية عـلى العلاقات والجماعات والتحزُّبات[2]، هذا من جماعتنا، وهـذا ضدنا، وهذا معنا، وهذا ليس معنـا، وهكذا الحياة الدنيا، لكن يوم القيامة كما قال رسـول الهدى سـيدنا محمـد ﷺ: «يَا فاطمةُ بنتَ محمدٍ، يا عباس عمَّ رسـولِ الله، أنقذا نفسيكما من النار؛ أنا لا أغني عنكما مـن الله شـيئًا، لا يأتيني الناسُ بأعمالهم وتأتوني بأنسـابكم، مَـنْ يُبطِئ به عملُه لن يسرع به نسبُه» [متفق عليه عن أبي هريرة].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر]. وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ...﴾ [الانفطار: ١٩].

الإنسـان يسـافر بعض الأحيـان إلى بلد لا يعرفه فيه أحد، شـخص عادي، قد يكون في بلده معروفًا ومخدومًا ومعززًا ومكرمًا، بمكالمة هاتفية يحل ألف مشكلة، أما في بلد آخر لا أحد يعرفه، والآخرة هكذا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ [الأنعام: ٩٤]، لا يوجد هناك جماعات ولا تحزبات ولا تكتلات ولا وساطات[3]...

١- زور: غيَّر الحقائق.

٢- التحزبات: الفِرَق والجماعات المنظَّمة وقوانينهم.

٣- وساطات: شفاعات وتدخلات.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى[1] عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾، إلا من رحم الله؛ لأن رحمة الله خير للإنسان من كل أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿... وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف].

اليوم الآخر يجب ألا يغيب عن أذهان كل مسلم، ولا لحظة، في حركته اليومية، كيف سيعامل زوجته وأولاده وأهله ومعارفه، ماذا أمر الله وماذا نهى؟ إنْ فَعل ما أمر فمصيرُه إلى الجنة، إن فعل ما نهى وأصر على فعله فمصيره إلى النار، في كسب المال، وفي إنفاقه، وفي كل تصرفاته.

الله عز جلاله يقرب إلينا الأشياء التي لا نحبها من أجل أن نقيس[2] عليها ما في الآخرة من عذاب، بالمناسبة لدينا أشياء في الحياة، آلام: ألم الحرق، وألم الفقر، وألم الذل، وأشياء مسعدة: الصحة، والجمال، والكمال، لماذا كانت هذه الأشياء المزعجة في الدنيا؟ ولماذا كانت هذه الأشياء المسعِدة في الدنيا؟ من أجل أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن شيء في الآخرة يكون لهذا الحديث معنى، الدليل: إذا ذاق الإنسان ألم الحرق، فالطفل الصغير لا يعرف ما الحرق، يقترب من المدفأة، فإذا لامست يدُه جدارَ المدفأة يصيح مذعورًا[3]، ماذا حدث؟ خبرة مؤلمة، فكل شيء متعلق بالنار والمدفأة يبتعد عنه بسبب هذه الخبرة، فإذا قلت له بعد حين، هذا الشيء يحرق يخاف، كلمة يحرق أثارت عنده خبرات مؤلمة؛ لذلك الآلام في الدنيا والأشياء المسعدة والسارة في الدنيا، لها وظيفة أبعد من وظيفتها الآنِيَّة[4]، وظيفتها البعيدة أن الله سبحانه وتعالى إذا حدثنا عن عذاب النار وعن

١- مولى: السيد، ويطلق أيضًا على العبد.

٢- نقيس: نقارن ونقرِّب.

٣- مذعورًا: خائفًا.

٤- الآنية: الحالية في الوقت الحاضر.

طعـام أهل النار وعن شرابهم وعـن حريقهم ففي الدنيا نـار، ونار الدنيا تحرق، والحريق مؤلم جدًّا، الحر لا يحتمل.

وبالمقابـل فـإن الله عـز وجل خلق أشـياء جميلـة، لماذا هذه الأشـياء الجميلة؟ خلق أماكن جميلة، وأشـخاصًا حِسـان الوجوه، وأعطى الطعام نكهة طيبة، هذه الأشـياء الجميلة لتكون مُرتَكَزَات[1] لنستوعبها فيما لو أن الله سـبحانه وتعالى حدثنا عن أحوال يـوم القيامة، عن أحوال أهل الجنة، لهـذه الكلمات مرتكزات، تصوَّر إنسـانًا لم يـرَ البحر أبـدًا، ولم يرَ صورته أبدًا،ولا سـمع صوت موجِه، ولا تعامل معـه، ولا ركبه، قُل أمامه كلمة بحر مرة، مرتين، ثلاثًا... مليونًا. فهذه الكلمة لا تعني عنده شـيئًا، ولكن لو أن الإنسـان رأى البحـر أو ركبه، أو رأى أمواجه الهائجة، أو اسـتمتع بمنظر البحر، أو خاف منه، فهذه كلها خبرات: خبرات مُسـعِدةٌ أو مؤلمة، وبعد حين كلمة بحر تثير عنده كل هذه الخبرات.

في التربية والتعليـم أخطر أنواع التعليم: التعليم اللفظي، إنها كلمات جوفـاء[2]، لا معنـى لهـا، يقـرأ الإنسـان كتابًا ويحفظـه غيبًا وينسـاه بعد الامتحـان؛ لأنه تعليـم لفظي، أمـا إذا كان فيه خبرات عمليـة، أية كلمة تغطي هذه الخبرة لو أعيدت لأثارت كل هذه الخبرات.

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾، الزقوم شجر خبيث ليـس في الجزيـرة أخبث منـه، فربُّنا عز وجـل ذكَّر المؤمنين وقـرَّاء القرآن الكريم بأن طعام أهل النار من هذه الشجرة.

من هو الأثيم؟ الأثيم على وزن (فعيل)، هو الآثم الذي يرتكب الإثم

١- مرتكزات: أسس ودعائم.

٢- جوفاء: فارغة.

والمعصيـة، فأنت أمام منهـج، في كل حركاتك وسـكناتك، وإذا تعاملت مع نفسـك خلاف منهج الله فهذا إثم، وإذا قصرت في أداء العبادات فهذا إثم، وإذا قـصرت في معاملة الخلق فيما عليك من واجبات فهذا إثم، وإذا اعتديت فهذا إثم أشد، وإذا أخذت ما ليس لك هذا إثم أشد وأشد.

المؤمـن عليه أن يعرف ما هي الآثام؟ ما الأعمال التي إذا فعلها كانت إثـمًا وكان هو آثـمًا أو كان أثيمًا؟ والأثيم صيغة مبالغـة، أي: أعماله الآثمة كثيرة، أو ارتكب عملًا أثيمًا كبيرًا، المبالغة إما في الكَمِّ وإما في النوع.

اعمـل إحصاءً للآثام وابتعد عنها، هذا التفكير العلمي، نحن أحياء، أما أن يقول أحدكم أنا شاب وعمري ثماني عشرة سنة، وعندي متَّسع من الوقت لأتوب!! كم من شـابٍّ رحل إلى الدار الآخرة في ريعان الشـباب، ربنـا عز وجل لحكمة تربوية هائلة جعل انتقال الإنسـان من الدنيا في كل الأعمار، شـاب يمـوت، والذي عرسـه بعد يومـين يمـوت، والذي نال الدكتـوراه ولم يأت إلى بلده، والذي بنى البناء ولم يسـكنه، والذي حصَّل أمـوالًا طائلـةً ولم يسـتفد منها، كلهـم يموتون، وكل مخلـوق يموت ولا يبقـى إلا ذو العزة والجبروت، والليل مهما طـال فلا بد من طلوع الفجر، والعمر مهـما طال فلا بد من نزول القبر، أردت من هذه المقدمة أننا أحياء في بحبوحـة، والقلب ينبض في بحبوحة، بـاب التوبة مفتوح، والإصلاح ممكن، والإحسـان ممكن، وأداء الحقوق ممكن، والمسـامحة، وكل شي ممكن في هذه الدنيا وبعد هذه الدنيا كل شيء مغلق.

هنالـك آيـة أخرى تذكرنـا بهـذا المعنـى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ [الغاشية]، والضريع: الشوك.

ثم قال تعالى:

﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥﴾، الإنسـان أحيانًا يصبُّ كأسَ شايٍ

حارٍّ جـدًّا ويظن بأن الحرارة معتدلة فيشرب شربة كبيرة، ويبقى يومين أو أكثر ولسـانه محروق، إذا كان الكأس أحر مما ينبغي، وأحيانًا يتناول حساء من الوعاء رأسًـا فيشرب ملعقة واحدة فيحترق لسـانه، فكيف إذا تناول زيتًا مغليًّا؟! والمُهْل: عكَرُ الزيت، وإذا غلى فدرجة غليانه عالية جدًّا.

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾، الحقيقـة أن عـذابَ الحريـق لا يُحتمـل، والحميم: الماء المغليُّ، وكلُّ حارٍّ لا يحتمل.

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾، إذا أُلقـي القبـضُ عـلى مرتكبِ جرائم كثيرة، وكان بعيدًا عن يد العدالة أعوامًا، فكيف يسـاق[1] إلى دوائر الأمن؟ يسـاق إلى السـجن سـوقًا مع الركل والضرب وما شابه ذلك، بما يتناسب مع جريمته، والكافر مجرمٌ فيُعْتَل[2] عِتالة، كأنه من سَقْطِ المَتـاع[3]؛ لأنه في الدنيا لم يعرف الله، في الدنيا لم يطع أوامره، فصار على الله هيِّنًا، بإمكانك أن تفسر أكثر ما يعاني منه المسـلم حينما يهون أمر الله عليه، فالإنسان بقدر طاعته لله يرتفع قدره عند الله عز وجل، الناس رجلان: بَرٌّ تقيٌّ كريم على الله، وفاجر شقيٌّ هيِّنٌ على الله.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾، قد نسمع عن ثوران بركان فتجد الحِمَمَ[4] سائلة، هذه الحمم صخر بازلتي سائل، حرارته تزيد عـن ١٥٠٠ درجة، فإذا تجمد شـكل صخورًا سـوداء، هـل يقدر الكافر والأثيم على هذا العذاب؟!

هـذا عذاب ماديٌّ، أحيانًا تُحرق يد الإنسـان، أو يشـعر بموجة ألم في كليتيه، ويشـعر بألم في رأسـه... هذا كله عذاب مادي، لكن أحيانًا يتلقى

١- يساق: يُجرُّ بشدة.
٢- يعتل: يُجذَب ويُجرُّ بعنف.
٣- سقط المتاع: كناية عن الرديء والحقير من الأشياء.
٤- الحمم: الكتل النارية التي تخرج من البراكين.

الإنسان كلمات قاسية لا ينساها سنوات عديدة، ثمة عذاب ماديٌّ، وثمة عذابٌ معنوي، والله عز وجل جمع لأهل النار كل أنواع العذاب:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾، فمن بعض معاني هذه الآية: أنه كان في الدنيا عزيزًا، وقد استكبر على الله أن يطيعه أو يسجد له، وأَبَتْ نفسُه[1] أن يقف عند أمر الله، فأخذته عزة الإثم، مع أن الله سبحانه وتعالى هو العزيز، ومع أن الله سبحانه وتعالى ما كان ليُذِلَّ مؤمنًا، وكلكم يقرأ في دعاء القنوت: «إنه لا يَذِلُّ مَن وَاليتَ، ولا يَعِزُّ مَن عاديتَ»، فالمؤمن عزيز لأنه مع العزيز، والكافر ذليل لأنه عادى العزيز سبحانه.

كنت في الدنيا عزيزًا، وحملتك عزتك على أن تكفر بالله، لقد كنت مستمتعًا بمباهج[2] كثيرة توهمت أنك إذا آمنت بالله ذهبت عنك، لكنك تمسكت بها وبقيت في الباطل، أما في هذا الموقف فذُقْ ألوانَ العذاب؛ إنك كنت في الدنيا مستكبرًا وعاصيًا...

الإنسان إذا أخطأ ثم وُوجِهَ بالحقيقة فإنه يتألم أشدَّ الألم؛ حيث أُخبِر أن هذا العمل خطأ، وأن مصيره السجن والعقاب الشديد، نُصح، نُبِّه، ذُكِّر، ولكنه لم يرتدع[3]، فلما وقع في قبضة العدالة تألم أشد الألم؛ لأنه نُبِّه سابقًا فلم يتنبَّه، قال تعالى:

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾، أي ما كنتم به تكذبون، فلك أن تقول ما شئت، وأن تصدق وأن تكذب، ولكن إياك أن تُكذب شيئًا لابد من أن يقع، لك أن تقول عن هذا الإنسان ما شئت، أنت مخير، لك أن تقول أن هذه ليست شمسًا في رابعة النهار، إن قلت ذلك فهي شمس، وكلامك لا يقدم ولا يؤخر، وادّعاؤك وافتراؤك وتكذيبك لا يقدم ولا يؤخر.

١- أبت نفسه: كرهت ورفضت.

٢- مباهج: مُتَع ومسرَّات.

٣- يرتدع: يكف ويمتنع عن الشيء.

وملخص هذا المشهد أن الإثم في الدنيا إذا كان متكررًا أو كان كبيرًا وأصر عليه صاحبه فهذا الإثم يقوده إلى النار، وفي النار يصب على رأسه من الحميم ويعاقب عقابين: عقابًا ماديًّا وعقابًا معنويًّا، عن أبي الدرداء قال عليه الصلاة والسلام: «والله، والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو تعلمون ما أنتم عليه بعدَ الموتِ ما أكلتم طعامًا عن شهوة، ولا دخلتم بيتًا تستظلون[1] فيه، ولذهبتم إلى الصُّعُدات[2] تبكون على أنفسكم» [أخرجه الطبراني].

الآن المشهد الآخر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ ... ﴿٥١﴾﴾، هذا الذي اتقى معصية الله، يقول هذا حرام وهذا حلال، أحيانًا في الدنيا يسخر الكافر من المؤمن؛ يقول له: ألا زلت خائفًا، إنك لا ترى شيئًا من متعة الدنيا، كل شيء حرام وحرام... ما هذه الحياة؟ يسخر منه، هذا المتَّقي الذي يقف عند حدود الله، فيخاف أن يعصي الله، وَقَّاف عند كتاب الله، يخشى أن يكون كسبه حرامًا، وأن يكون إنفاقه حرامًا، وأن يستمتع بما يُغضِب اللهَ، في كل مواقفه يفكر كيف يواجه الله عز وجل بهذا العمل.

﴿... فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾، أي في مقام[3] مُسْعِد، ومع السعادة طمأنينة، أحيانًا يكون الإنسان في مقام عالٍ في الدنيا، ولكن عنده قلق عميق أن ينحَّى عن هذا المنصب، هذا القلق العميق يفسد عليه الاستمتاع بهذا المنصب، لا يجد أمنًا. وهناك إنسان وصل إلى دخل كبير عنده شيء يفسد عليه هذا الدخل هو خوفه أن ينقطع هذا الدخل.

﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾﴾، الناس إذا رأوا حديقة، أو أرضًا خضراء، أو أشجارًا باسقةً، أو ينبوع ماء، أو شلالات... يقولون: مثل الجنة، والله عز وجل جعل النبات الأخضر والماء العذب الفرات وأصوات العصافير... كلها مُسعِدَةً للنفس.

١- تستظلون: تستترون من حرارة الشمس.

٢- الصعدات: الأماكن المرتفعة.

٣- مقام: موضع إقامة.

لا يوجد في الجنة تقدُّمٌ بالسن، ولا أمراض قلب وضعف سمع، ولا ضعف بصر ولا خرف، ولكن شباب دائم، كل شيء تشتهيه بين يديك، والمنافسة منعدمة، إزاحة شخص لآخر عن منصبه مفقودة، وكل متاعب الدنيا يَبْرَأ[1] الإنسان منها في الآخرة.

في الحقيقة مما يضاعف نعيم أهل الجنة أن الحياة الدنيا متعبة، لقد جاء إلى الدنيا فوجد فيها المتاعب والمخاوف والمقلقات والأمراض والمنافسة أحيانًا... والناس لا يرحمون، والناس لا يرضون، ولا يوجد أحد ليس عنده قصص كثيرة يحدثك عن متاعبه في الحياة، هذه المتاعب لحكمة بالغة، والله تعالى غنيٌّ عنَّا، جاء في الحديث القدسي عن أبي ذر عن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: قال الله تعالى: «...ولَو أنَّ أوَّلكُم وآخِركُم وإنسَكُم وجِنَّكُم وقفوا على صَعيدٍ[2] واحد وسألني كلُّ واحدٍ منكم مَسْألتَهُ ما نَقَصَ ذلك في ملكي إلَّا كما يُنْقِصُ المِخيَطُ[3] إذا غُمِسَ في البحر» [أخرجه مسلم]. أي: إن الله عز وجل قادرٌ أن يعطي كلَّ إنسان مَطالبَهُ، يعطيه أحلى شكل، وكذلك أعلى دَخْل، وأفضلَ زوجة، وأوسعَ بيتٍ، وأغلى مركبة، وعندئذ نكره لقاءَ الله عز وجل!

الحياة الدنيا شاءت حكمة الله أن تكون مشحونة[4] بالمتاعب، حتى تتضاعف السعادة في الآخرة، كل شيء كان في الدنيا يؤلمك يزول في الجنة، يكون الإنسان ساكنًا في بيت صغير وفيه متاعب، وشمسه قليلة، فينتقل لبيت الشمس في كل الغرف، وكان البيت صغيرًا فأصبح كبيرًا، وكان له

١- يبرأ: يتخلى.

٢- الصعيد: وجه الأرض.

٣- المخيط: الإبرة التي يُخاط بها.

٤- مشحونة: مزدحمة.

درج فصـار فيه مصعد مثلًا، كان فيه مدفئة فحم أصبح فيه تدفئة مركزية، كان فيه حر فصار فيه تكييف، وكل شيء في البيت القديم يضاعف سعادته في البيـت الجديد، كان هنالك أشـياء مزعجة كثيرة جدًّا هنـا (في الدنيا)، فاستراح هنا (في الجنة) منها.

إن الناس جميعًا - بما فيهم المؤمنون - سـيَرِدُون على النار، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ...﴾ [مريـم: ٧١]، وورود النـار ليـس دخولها، لكن المؤمـن يطَّلع على النار، يطلـع على مكانه فيها فيما لو عـصى الله في الدنيا، ينظـر إلى أهـل الدنيـا الذين لم يبالـوا بطاعة الله، أين مصيرهـم؟ فيطمئن قلبـه لعدالـة الله، ويرى أين مصير الجبابـرة، ثم يرى مكانـه في النار لو لم يكـن مؤمنًا، هذا الورود (المرور من فوقها) على النار يوم القيامة يضاعف سعادة المؤمن أضعافًا مضاعفةً، كذلك متاعب الدنيا من شأنها أن تزيد من سعادة المؤمن يوم القيامة.

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾، يلبسـون لباسًـا من (سندس)، أي: من حرير رقيق، و(إستبرق)، أي: من حرير ثخين.

متقابلـين في جلسـات مريحة، لا يرى أحدهم إلا وجـه الآخر، طبعًا وهـم على هذه السرر متقابلون يتحدثون حديثًا عذبًا، يتحدث كلٌّ للآخر عن تجربته في الدنيا، عن معرفته بالله، وعن أسـباب إيمانه واسـتقامته، إنه حديث رائع؛ فيه محبةٌ ووُدٌّ، ولا حسد هناك، ولا غيبة[1]، ولا ضغينة[2].

ومن تمام نعمتهم في الجنة:

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾، الحور: تحار العين في حُسنِهنَّ وجمالهنَّ، الجمال المطلق في الجنة، في الدنيا الجمال متفاوت، ولا يوجد امرأة كاملـة، إذا كملـت من جهة نقصت مـن جهة ثانية، حتى لـو كمل جمالها

١- غيبة: ذِكْرُ الآخر من ورائه بسوء.

٢- الضغينة: الحقد الشديد.

نقص عقلها، فهناك توازن، والمجموع ثابت، ولكن في الآخرة كمال مطلق في كل شيء.

(عِين): أي لهن عيون واسعة، والحوراء: شديدة بياض العين، وشديدة سوادها، وهذا الوصف كان العرب مغرمين به.

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾، بالإضافة إلى الزوجة الحوراء والعيناء لهم فيها ما يشاؤون من فاكهة وهم آمنون.

أحيانًا يخاف الإنسان من أن تُفقد هذه الفاكهة، أو يخاف أن تنتهي، أو يخاف ألا يشتريها، أو ينتهي وقتها، أو يُمنع استيرادها... الفاكهة في الجنة لامقطوعة ولا ممنوعة.

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ ... ٥٦﴾، أي: لا يوجد إلا موتة واحدة، حينما يلقى الإنسانُ ربَّه، وبعد هذا الموت نعيم دائم، فآخر شيء يمكن أن يزعج المؤمن حين تنزع[1] روحه وتصعد إلى الملأ الأعلى[2].

إن الكافر كلُّ شيء عنده بعد الموت أصعبُ من الموت، وأما المؤمن فكل شيء بعد الموت أهون من الموت؛ من الموت إلى الجنة، القبر والبرزخ عنده روضة من رياض الجنة، وكلُّ نعيم دون الجنة محقور[3]، وكل بلاء دون النار عافية.

﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٥٧﴾، فضل الله تعالى ليس فوقه فوز ودُونَه كلُّ فوز، أحيانًا يكون الفوز في نظر الناس شيئًا آخرَ، المال عندهم فوزٌ، وكذلك المنصب والنجاح كله فوز، ولكن الفوز العظيم هو أن تدخل الجنة.

١- تنزع روحه: يتوفى، يموت.

٢- الملأ الأعلى: السماء العليا.

٣- محقور: لا قيمة له.

أحـد خلفاء بني أمية التقى بعالم جليل هو سـالم بن عبد الله بن عمر، فقـال له: سَـلْنِي حاجتك؟ فأجابـه: ليس لي عندك حاجة، فلـما ألحَّ عليه قال: والله أسـتحيي أن أسـأل في بيـت الله غيرَ الله، فلـما التقاه خارج بيت الله، قـال له ثانيةً: سَـلْني حاجتك؟ قـال له: والله ما سـألتها مَن يملكها، أفأسـألها مَن لا يملكها؟ فلما ألحَّ عليه قال: أريد أن أدخل الجنة، فأجابه: هذه ليستْ لي، فقال هذا العالم: إذًا ليس لي عندك حاجة.

كلُّ إنسـان يتوهَّم[1] فوزًا غير هذا الفوز فهو جاهل، المال ليس فوزًا، وحيازته[2] ليسـتْ فوزًا، أن يتمتع الإنسان بصحة جيدة ويعيش ٩٨ سنة، هـذا ليس فوزًا عند الله، هنالك طغاة[3] عاشـوا أكثر مـن ذلك بكثير، أن تكـون في أعلى مرتبـة اجتماعية ليس فوزًا، أن تسـتمتع بكل شيء في الدنيا ليس فوزًا، إنما الفوز بالجنة هو الفوز العظيم.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾، هذا قرآنٌ بلسان عربي تذكرةً لكم.

انتظـر تحقيـقَ الوعد والوعيـد[4]، الزمن ليس في صالـح الكافر، هو في صالـح المؤمـن؛ لأن مُضِيَّ الزمنِ سـوف يؤكد للمؤمن صحـةَ رؤيته، وصلاحَ عمله، وفوزه الحقيقي، وأما غير المؤمن فالزمن يفاجئه بأن أفكارَه غيرُ صحيحة، ورؤيتَه كانت مُشَوَّشَـةً[5]، ضبابية، قِيَمه سـاقطة[6]، مبادئه هدَّامة، والدليل على أن الزمن لصالح المؤمن، وليس في صالح الكافر:

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾، الأيـام لا تلـد للمؤمـن إلا الخـير، لقولـه تعـالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ...﴾

١- يتوهم: يتخيل.
٢- حيازته: جمعه وتملُّكه.
٣- طغاة: جمع طاغي، وهو المتكبر الجبار.
٤- الوعيد: التهديد والتوعُّد بالشر.
٥- مشوشة: غير واضحة.
٦- ساقطة: رديئة، لا خير فيها.

[التوبة: ٥١]، وأما الكافر فلا تلد له الأيام إلا الشرَّ؛ لذلك قال رسول الله ﷺ: «بَادِرُوا بِالأعمالِ سبعًا، هَل تنتظرون إلا فقرًا مُنْسِيًا، أو غنىً مُطْغِيًا، أو مرضًا مُفْسِدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مُجهِزًا، أو الدجالَ، فَشَرُّ غائبٍ يُنتَظَر، أو الساعةَ والساعةُ أَدْهَى وأَمَرُّ» [رواه مسلم].

أي: سابقوا وسارعوا قبل أن ينزل بكم واحد من هذه الأمور المذكورة؛ فبادروا بالأعمال الصالحة في وقت إمكان الفرصة، قبل أن يَدْهَمَكُم[1] ما لا قِبَلَ لكم به، فيحول[2] بينكم وبين العمل هذا هو المراد.

فقرًا منسيًا: الإنسان إذا افتقر فقرًا شديدًا فإن هذا الفقر ينسيه، يشتغل قلبُه بلقمة العيش؛ فلا يتمكن من الأعمال الصالحة.

غنى مُطغيًا: كثيرًا ما يحمل الغنى صاحبَه على الفسق والبطر والتفريط والتعالي.

مرضًا مقعدًا: مرضًا يفسد الأعضاء ويُقعِدُ صاحبه في الفراش فلايستطيع عمل شيء.

هرمًا مفندًا: إذا وصل الإنسان إلى مرحلة متقدمة من العمر فقد تتلف خلايا العقل ولا يعتد برأيه وعقله.

موتًا مجهزًا: الموت السريع الذي يأتي فجأة.

الدجال: الذي يظهر آخر الزمان ويفسد الأرض، ومن يريد أن يعرف خبره فليقرأ كتب الفتن الموثوقة.

والساعة أدهي وأمرُّ: وهي أدهي من كل ذلك، أي: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يدور في البال.

والحمد لله رب العالمين

***

١- يَدْهَمَكُم: يفاجئكم.

٢- فيحول: فيمنع.

الخاتمة

عندما يغرق الإنسانُ في المعاصي ثم يريد أن يتوازن مع نفسه يقول: مَن مات ورجع وقال إنه ثمَّة آخرةٌ؟! وأكثر الأشياء راحةً للنفس هو نفيُ الدارِ الآخرة؛ لأن الإنسان إذا نفى الدارَ الآخرة فقد نفى الجزاء والحساب، عندئذ يتحرك حركة عشوائية[1]، فيأكل مال هذا، ويشتم ويعتدي على هذا، ويغتصب ويطغى ويبغي، وصعب على الإنسان أن يتطاول[2] ويأخذ ما ليس له إذا كان عنده يقينٌ بالآخرة وأن هناك حسابًا؛ ولذلك فأركان الإسلام خمسة: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ونحن نلاحظ التلازم[3] بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

من ألغى اليوم الآخر من حساباته عندها لن تكون لديه استقامةٌ، وتصبحُ الدنيا بالنسبة إليه كلَّ شيء، فالحقيقة أن الإيمان باليوم الآخر من لوازم الإيمان بالله، عندئذ كلُّ عملٍ يُقَوَّم وَفْقَ ساعةِ الحساب يوم القيامة.

الإيمان باليوم الآخر أن تؤمن أن ثمة حياة أبدية سرمدية هي الحياة الحقيقية، وهي الحياة التي خُلقت من أجلها؛ لذلك إذا آمنت باليوم الآخر تجعل هذه الحياة الدنيا مدرسة للآخرة، حياة إعدادية لمدرسة عليا أبدية...

من أين يأتي؟ يأتي التناقض والهم والحزن من اعتبار الحياة الدنيا هي الحياة الأساسية، فيحس المرءُ النقصَ مُزعجًا، نقص المواد، وارتفاع الأسعار، ونقص شيء في الصحة، وعدم التوفيق في زواجه وفي عمله،

١- عشوائية: على غير هدى ومعرفة.

٢- يتطاول: يتجرأ ويعتدي على ما ليس له.

٣- التلازم: عدم انفكاك أحد أمرين عن آخر.

هذه الهموم يراها كبيرة ساحقة لأن آماله كلها في الدنيا، لو أنه نقل أهدافه وآماله واهتماماته إلى الآخرة، كل شيء في الدنيا يرضيه...

عِشْ في الدنيا كأنك مسافر، عندما يسكن الإنسان في بيت شهرًا واحدًا بمصيف مثلًا، قد يكون في البيت أخطاء كثيرة جدًّا ونواقص كثيرة جدًّا، ولكنه لا يعبأ بها أبدًا، هو جاء استجمامًا[1]، فأي شيء فيه نقص أو خلل أو خطأ يتجاوزه، لو أردت أن تعيش الدنيا كما تعيش شهرًا في مَصْيف ستُحلُّ كلُّ المشكلات.

من رحمة ربنا الواسعة سبحانه وتعالى أن باب التوبة مفتوح، ونحن أحياء، والقلب ينبض، وباب الإحسان والإصلاح والمسامحة والأداء كلها مفتوحة حتى مجيء أجله.

المدرس من شدة رحمته بالطلاب، يعطيهم نماذج أسئلة لئلا يتفاجؤوا، يقول لك مثلًا في الامتحان يوجد مسألة ومعادلة وسؤال نظري، والمسألة خمسة طلبات، والله عز وجل يوضِّح لنا - من خلال القرآن الكريم وأحاديث رسوله الكريم - ما سيكون قبل أن يكون.

والحمد لله رب العالمين

---

١ - استجمامًا: طلب الراحة.

تم بحمد الله

الفهرس

إهداء ٥

مقدمة ٧

سورة الدخان: آياتها ١٣

سبب التسمية ١٤

فضل السورة ١٤

محاور السورة ١٥

السورة: النص ومعاني الكلمات مع هداية الآيات ١٦-٢١

التفسير الموضوعي لسورة الدخان للشيخ محمد الغزالي (رحمه الله)... ٢٣

التفسير المفصل لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي (حفظه الله)... ٢٩

الخاتمة ٨١

الفهرس ٨٥

ملاحظات

١.

٢.

٣.

٤.

٥.

٦.

٧.

٨.

٩.

١٠.

١١.

١٢.

١٣.

١٤.

١٥.

3alamatnisurah

هـذا الكتـاب

إن من أهداف سورة الدخان: الدعوة إلى توحيد اللّه، وبيان الرسالة، والتذكير بيوم البعث؛ لترسيخ عقيدة الإسلام، وتثبيت دعائم الإيمان، وفي هذه التسمية (الدخان) ما فيها من التخويف للكفار.

ابتدأت السورة الكريمة بذكر القرآن العظيم، المعجزةِ الخالدة، الباقي إلى أن يرث اللّه الأرضَ ومَن عليها وإليه يُرجَعون، ذلك الكتاب الذي أنزله اللّه في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، وهنا يظهر شرف تلك الليلة العظيمة، التي تُدَبَّر فيها أمورُ الخلق أجمعين...

كما ذكرت السورة موقفَ قومِ فرعون، وإنكارَهم للبعث والنشور، وأثرَ ذلك عليهم، الأثرُ هو العقوبة، وهي سنةُ اللّه تعالى لا تتخلف (في جميع العصور) في إهلاك الطغاة المجرمين في الدنيا، ثم تعذيبهم في جهنم، وفي الطرف المقابل مصيرُ الأبرار الذين سيخلدون في جنات النعيم.